سعيد النورسي

في محنة الكفر والطغيان



الإهداء

إلى كل من أمسك قلماً

وخطّ في صفحة المعرفة الإيمانية حرفاً



أديب إبراهيم الدباغ

رقم الايداع

المقدمة

عقل إيمانيّ لماح، وفكر قرآني متماسك صلب ليس فيه منفذ لنافذ. ولا ثغرة لمترصد وقلم جوّال صوّال، وما من ميدان من ميادين الإسلام والايمان إلاّ وقد ترك فيه أثراً ووضع عليه شارةً...

ذلك هو "النورسي" رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، إنسان صعب المرتقى. من أين حاولت الإرتقاء إليه، والوصول إلى قِمَمَه، بلغَ منك التعب مبلغاً. وأقعدك حيث وصلت لاهثاً متعباً، وكيفما احتلت للإمساك بتلابيب فكره، والتشبث بأصول عقله أحسستَ – بعد لأيٍ – أنك لم تمسك من ذلك إلا النزر اليسير، وفاتكَ الكثير الوفير.

ومهما انتهجت من نهج، وسلكت من درب، ووضعت من قواعد وأصول في دراسة "النورسي" والكتابة في حياته وسيرته وفكره، فستجد – في خاتمة المطاف – أن "دائرة معارف النورسي" وحياته الإيمانية الحافلة الخصبة، تستعصي على أي نوع من أنواع الاكاديمية، وتنأى عن أي شكل من أشكال المنهجية المتعارف عليها بين كتّاب السير، لان أحداً لا يستطيع أن يحصر "البحر" في قنوات الاقلام، أو يحبس "المحيط" بين دفتي كتاب.

فأنت إزاء مفكر مبدع خصب في إبداعاته، غزير في جدّة معانيه، وسيع في ثرائه الوجداني وعطائه الروحي. ومبلغ علمي أنه لم يسبقه أحد – في العصر الحديث – فيما تناوله من "القضايا الإيمانية الكبرى" ولا سيما الغيبية

منها كـ"الآخرة" والحشر، والثواب والعقاب، والجنة والنار" فقد أوتِيَ من سَعَة التصور والخيال وقوة المنطق والبرهان، في مناقشة هذه الغيبيات التي حار فيها فحول العلماء وفطاحل المفكرين ما يثير الدهشة ويبعث على الذهول، وهو يضع "غيبيات ما رواء العقل" بين يديك بكل يسر وسهولة ويوقفها تحت بصر عقلك، وعين قلبلك، حتى لتكاد تلمسها لمسَ اليد، وتراها رأي العين، فلا يسع معها أي معاند أو مكابر -إن كان منصفاً- إلاّ الإيمان بها، والتصديق بوقوعها. كما أخبرت بها الأديان وبشرّ بها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ورغم أن "النورسي" كرّس معظم سني عمره من أجل "إنقاذ الإيمان" والبرهنة على صحة معطياته وتعميق أصوله وجذوره في نفوس الناس، ولم يجد متسعاً من الوقت – وهو يتصدى لهذا العمل العظيم – لممارسة أي نشاط آخر يمكن أن يوخز حساسيات "السلطة" ويثير شكوكها وحفيظتها، إلاّ أنه مع ذلك لم يسلم من الأذى والمراقبة والاضطهاد والنفي والتشريد وحتى السجن، مما جعل حياته سلسلة طويلة من المآسي والآلام والأحزان.

هذا الكتاب هو محاولة متواضعة في تصوير هذه "النفس العظيمة" التي كانت تقتات بالآلام، وتحيا بالأحزان، ولكنها -مع عمق مأساتها- لم تفتر ولم تضعف ولم تقف -لحظة واحدة- عن نتاجها الفكري وعطائها الروحي.

وقد هزّتني هذه البطولة النادرة الفذة، وصعقتني بوارق "الإيمان" وتوهجه خلال الأحداث الضخمة والمثيرة التي شهدتها "تركيا" المسلمة في أواخر خلافة بني عثمان وبدايات "العهد الجديد" المناهض للدين والإيمان.

فوقفت عند هذه المواقف والمنعطفات في حياة الرجل وراعتني شجاعته وحكمته في مواجهة طوفان الإلحاد والطغيان الذي بدأت أمواجه العاوية تطغى على صوت الإسلام وصراخ الإيمان.

ولم أهتم بتواريخ الأيام والسنين ولم أستعرض مجريات أحداثها إلاّ بالقدر الذي يلقي الضوء على حركة الإيمان في وجدان "النورسي" ومسارات تقدمه على الصعيدين الفكري والعملي في صفوف المسلمين المضطهدين. وقد التزمتُ بروح أفكاره وجوهر مفاهيمه ولم أنقص منها أو أزيد عليها ضمن التصرف المعقول والمطلوب الذي تقتضيه العبارة العربية وأساليبها البيانية.

واستعرضت في فصل "قراءات في فكر النورسي" بعضاً من أفكاره وآرائه في أخطر المسائل الفكرية والحضارية التي يمكن أن تواجه "العصر الإيماني الجديد" الذي بشّر النورسي بقدومه، كما ألمحتُ إلى بعض من أفكاره في ثنايا الفصول الأخرى التي سبقت هذا الفصل.

وأود أن أشير إلى أنني قد رجعت في تأليف هذا الكتاب إلى بعض المصادر والترجمات العربية، ولعلّ من أهمها كتاب "بديع الزمان سعيد النورسي – نظرة عامة عن حياته وآثاره" والترجمات العربية التي ما زال يوالي نشرها الأستاذ "إحسان قاسم الصالحي" في مجلة التربية الإسلامية ببغداد، واطلعت كذلك على ما كتبه الاستاذان الفاضلان "محمد سعيد رمضان البوطي" و "عاصم الحسيني" عن النورسي. وأفدت أيضا من بعض المصادر التركية فائدة كبيرة رغم قصر باعي في هذه اللغة، واستعنت ببعض الأساتذة

الملمين بالتركية في ترجمة النصوص ومقابلتها مع النص العربي، وأخذت بملاحظاتهم، جزاهم الله عني خير الجزاء.

وبعد:

فلا أزعم أني قد استوفيت الكمال فيما كتبت، وأتيت بما لا يطيق أحد أن يأتي بأحسن منه بعدي، ولكنّ هذا الكتاب – مهما قيل في قصوره – أرجو مخلصا – أن يفتح عيون العالم العربي وسمعه على "النورسي" هذا الكنز الإيماني العظيم، الذي ما زال مجهولا – للاسف الشديد – عند عموم القراء والمثقفين العرب.

وأنا على ثقة بأن التعرف على "النورسي" وأفكاره سيغني المكتبة الإسلامية العربية ويثريها ويمدها بأعظم وأجمل لآلئ الفكر الإيماني، وأروع جواهر العقل الإسلامي، والتي ما زالت – هذه المكتبة – مفتقرة إليه.

اللّهم يا من علّمتَ بالقلم، علّمنا ما لا نعلم، وأجر على أيدينا ما يقربنا إليك، وينفعنا يوم القدوم عليك... آمين...

وصلّ اللّهم على نبينا محمد خير من علّم مِنْ علمك وأعظم من هدى وأرشد إليك.

أديب إبراهيم الدباغ

توطئة

انظر وشاهد واختبر ثم أكتب:

جولة استطلاعية ومشاهدات ميدانية في

رياض النور

ارفع ذكر النور، وانصر أهل النور، وأرشد النور إلى النور

(السهر وردي)

من بعيد جئناكم.. من وراء الفيافي والقفار أتيناكم.. بلهب أرواحنا وصحارى قلوبنا قدمنا إليكم.. بنفوسنا الجدباء، وأفئدتنا القفراء، أطللنا عليكم.. بالعطش الرهيب في وجداننا، والجوع المخيف في ضمائرنا حططنا رحلنا بينكم، ونزلنا في واحاتكم، وأقمنا خيام أشواقنا، وخِباءات أحلامنا في ربوعكم..

على كواهلنا –أينما مضينا– نحمل غربتنا.. وفي أعماقنا –أينما سرنا– نطوي سرّ وحدتنا وتفردنا.. نسري مع ركبان أشواقنا، ونمضي مع قوافل أحزاننا.. وفي جزع ملتاع نفتش في هذا العالم عن رفاق الإيمان، وجند القرآن، وتلامذة النور، المتلفعين بالسنا، المضيئين في الديجور.. ونلقاكم –ياأخوتي– في رياضكم، وتكتحل عيوننا بمرآكم في منازلكم، وتعتنق الأرواح والقلوب ويتواصل الحنين، وتجيش الأشواق، وتتناغم الأشجان، ويمتد نسب الغربة بيننا وبينكم فيجمعنا على الحب والمواساة والعزاء..

عندكم -يا اخوتي- وجدنا عظمة أصولنا الإيمانية وهي تشع بالنضارة والري.. وفي رياضكم وقفنا على منابت جذورنا القرآنية وهي تموج بالخصب وتسبّح بالعطاء.. ومن بين أيديكم كنا نتناول أبكار المعاني والأفكار في شدّهٍ وذهول وكأننا لم نكن نعرف الإيمان قبل أن نرتشف معانيه من كؤوسكم، ولم نكن نعرف القرآن قبل أن نسمعه من بين شفاهكم.. فلا والله لا أدري ما أقول: أأنتم بالإيمان تحيون..؟ أم يحيا الإيمان بكم..؟ وهل بالقرآن تتحركون..؟ أم يتحرك القرآن بكم..؟ فمذ عرفناكم عرفنا كيف يتحول الإيمان في نفس المؤمن إلى يقظة وجدان.. وصحوة فكر.. وهزة ضمير.. ولهفة مشتاق.. وباقة أحاسيس متفتحة على أغاني الحياة وفرح الوجود، وجمال الكون الأنوس...

خذونا —يا إخوتي- إلى مراتع قلوبكم الوامضة بالأمل إيماض الفجر على سدف الظلام، فقد غمرتنا ظلمات اليأس، وتغشتنا دياجي البؤس السقيم.. وأوقفونا في رياض الروح وعند ينابيع الإيمان المتفجرة من قلب أستاذكم الجليل، ودعونا نَعِلُّ منها، وننهل من مناهلها، فقد أضنانا العطش وأشاع في أرواحنا اليبس والجفاف.

ونمضي والهين، نفتش بينكم عن ذلك السيف المهيب في حُزنه، العظيم في غمده، الشامخ في جرحه، المتألق رغم تراب الدهور وغبار القرون، والمتوهج رغم صدأ الأزمان وظلمات النسيان، هذا السيف المحمدي الذي تورق في ظلاله جنان المسلم وتزهو تحت نصله فراديس المؤمن، فإذا بنا نلقاه قائما في قلوبكم الباسلة، ونلمحه بارقا في أرواحكم الشجاعة، مجلواً من كل

صدأ صقيلاً مرهفا.. وكأنك يارسول الله ق قد هتفت بهم اليوم من وراء الغيب: "من يأخذ سيفي بحقه..؟"

وتجيبك جموعهم: "نحن يارسول الله".

وبحثوا خاشعين تحت ظلال سيفك يارسول الله، وبكل وَلَهنا وحبنا نلثم بوارق نوره، ونعانق لمعان ضوئه ونحن نحتضن طلبة النور، ونضم جموعهم إلى صدورنا..

ومع أولاد النور نحث الخطى في جذل الروح النشوان، وفرح القلب المترقب اللهيف، فإذا بنا نقف على مشارف ذلك الصرح الفكري العتيد الذي شيده عملاق الإيمان وخادم القرآن: الأستاذ "النورسي"، من مقالع قلبه، وحنايا روحه وفلذات فكره ووجدانه، فنشْدَهُ لهذا البناء الشامخ الصاعد في سماوات الإيمان والمتلألئ بأنوار القرآن، ونتهامس فيما بيننا: أي عبقري هذا الرجل؟! وأية شخصية خصبة يمتلك؟! وأية نظرات نافذة غوارة في قلب المعاني والأفكار هي التي تسعفه في تناوله لكبرى قضايا الإيمان ولأخفى خفايا الغيب، حتى لكأن الغيب عنده حضور دائم، وشهود مستمر..

وأي عقل ذكي لماح هو عقله الذي يقيد كل فكرة سارحة، ويعقل كل خيال جامح، ويقرب كل معنى بعيد، حتى لنكاد نلمسه لمس اليد، ونعيشه عيش الحقيقة والواقع...؟!

هذا إنسان قل في الناس مثله، ومفكر ندر في المفكرين نظيره، وصاحب رسالة أوقف لها نفسه، وكرس من أجلها وجوده حتى استعذب العذاب،

واستمرأ المر، واستروح الجراح، واستقوى بالآلام على صروف الدهر ومصائب الأيام، وتدرع بالأحزان وهو يشق طريقه في حومة الأهوال، فما طرفت عينه ولا وجف قلبه، ولا ارتاعت نفسه، ولم يكبُ به قلم، أو يعثر به لسان.

ففي كل كلمة من كلماته قوة من قوى الفكر الهادي الرصين، ونبضة حارة دافقة من نبضات القلب العميد الذي شفّه الوجد، وأضناه الشوق. فأنت في حيرة من أمر كلامه، أهو من فيض قلبه؟ أو من فيض فكره؟ أم هو مزيج من الفيضين معا؟

ولا تدري أهو قلبه الذي يفكر، حتى لتحس بأفكاره –رغم ما فيها من دقة وعمق وأصالة– وهي تستقر في قلبك قبل أن يتناولها عقلك بالتحليل والمناقشة، وتشعر وكأن عقله في سجود دائم وصلاة مقيمة، وكأنه الروح في تسابيحه والقلب في تبتله وأشواقه، وتتساءل عن سر ذلك فيما يتحدث أو يكتب، فلا تجد جواب ما تسأل عنه إلاّ في "القرآن الكريم" الذي يعلو بأسلوبه فوق كل شأن إنساني. ولكن صحبة "القرآن" وإدامة النظر فيه، وإدمان تلاوته، يجعل الإنسان محلّ تجلياته العلوية، وموضع إمداداته القدسية، فإذا تكلم هذا الإنسان، أو كتب، استعار قلب القرآن وفكره معا فيما يتناول من شؤون فكر الانسان أو قلبه.

لقد وقف "النورسي" على أسباب الشقاء البشري، ووقع على أصول الداء الذي غدا يأكل النفس البشرية وينخرها من الداخل، وأدرك سر عذاب القلب الإنساني وبؤسه في غياب "الإيمان" عنه، وخمود جذوته، وانطفاء توهجه، وهاله هذا الإنحراف المخيف للإنسان من قمة إهتماماته

السامية التي كانت تشغل ذهنه في أسرار "الحياة والموت والمآل والمصير" إلى مهاوي الاهتمامات الهابطة التي تغرق الإنسان وتعمي بصيرته بسيل من الجزئيات الحياتية اليومية المكرورة، وبالأفكار الأفيونية المريضة التي تشدّهُ إلى عجلة هذه المادية الجافية الجاسية، والتي قلما يستطيع الإنفكاك عنها، والتحرر منها إلاّ بجذبة قوية من جذبات الإيمان، وهزة من هزاته التي توقظ النيام وتبعث المخدرين... وها هو "النورسي" يصرخ من قلب هذه المأساة البشرية الدامية:

إعلموا –يا أخوتي– أن عصرنا هذا هو عصر "إنقاذ الإيمان" من بين براثن المادية الطاغية، وزمن تحصين الروح الإنساني وإمداده بالطاقات الإيمانية التي تؤهله للتصدي لأعداء الروح.. فإذا ذهب الإيمان، ذهب كل شئ، وإذا غاضت ينابيعه، وجفّتْ سواقيه، غاضت روح الإنسان وجفّ قلبه وتيبست نفسه وماتت إنسانيته...

ولا أظنه مغاليا ذلك المفكر الذي قال في معرض تحدثه لنا عن "النورسي":

إن رسائل "النورسي" وكتاباته التي خلفها وراءه هي قوت البشرية وزادها وحظها من هذه الحياة، ولا بد أنه سيأتي ذلك اليوم الذي تتنبّه البشرية بأسرها إلى هذا الزاد فتقبل عليه لتنال نصيبها منه...

* * *

ونوغل في رحلتنا، ونلتقي هنا وهناك نماذج من تلامذة "النور" الذين بنتهم أفكار "النورسي" فمنحتهم هذه الأفكار، وضوح الرؤية، وشمولية

النظرة، وسعة الفهم، وعمق الإدراك. وأرهفت فيهم أحاسيس الذوق والجمال والشاعرية. ونبهت فيهم محطات التلقي عن الكون، وأجهزة الإنصات لكل نأمة وهمسة مما تقع عليه العين من مخلوقات الله، حيواناً ونباتاً وجماداً، فإذا بهم يعقدون مع هذه الموجودات مشاعر حارّة من التعاطف والمحبة والمودة، فلم نَرَ -على كثرة ما رأينا- جماعة تحفل بالجمال مادة ومعنى تتذوقه، وتتناغم معه، وتفتش عن مظانه وترود ينابيعه، وتناغيه وتحاوره كما وجدنا ذلك في "طلبة النور" صبيانا وشبابا وشيوخا. فالزهرة تفيض بالمشاعر والأحاسيس في فكر "النورسي" وفي أفكار تلامذته من بعده، والبلبل والفراشة، والعندليب والعصفور، والنملة والنحلة، مخلوقات رقيقة، ورموز مليئة بالمعاني والأفكار في ذهن "النورسي" حتى أنه ليوليها الكثير من اهتماماته مما كتب من رسائل، لأن كل ما في الحياة من جمال هو في حقيقة أمره مظهر من مظاهر تجليات الجمال الإلهي الأعظم والأقدس، الذي يوجب على البشر الإحترام والخشوع ويفرض الإنعطاف والانجذاب والعشق والشوق...

وقد غدا هذا الجانب الجمالي من فكر "النورسي" موضع تطبيق عملي في الممارسات اليومية "لطلبة النور" حتى أن التأنق والذوق في المأكل والملبس والمسكن -مع مراعاة قواعد السنة النبوية الشريفة في التواضع والبساطة والشكر على النعم- هو ميزة "طلبة النور" وطابعهم العام الذي أدهشنا واستحوذ على إعجابنا..

* * *

وتمخر سفينة رحلتنا البحار الفكرية العميقة "للنورسي" فتنساب مرة في إسترخاء الوجد الحالم وتارة تصارع النوء متأرجحة فوق هدير فكري موّار، وأثباج عقلية مهيبة تقلقنا وتزلزل كل بنانا الفكرية التقليدية المتصدعة..

ونكتشف أننا إزاء عملاق من أعاظم نقدة الفكر الغربي والحضارة الغربية، وأنه من أوائل الرواد الذين وقعوا على مفاتيح هذه الحضارة، وأشار إلى أن سر قوتها يكمن في فكرها العلمي المنظم، وفي مناهج البحث التجريبية العملية، ونبه الشعوب الإسلامية إلى ذلك، ودعا الحكومات إلى ضرورة تدريس علوم الرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك في مدارسها جنبا الى جنب مع العلوم الإسلامية، لكي تتخرج أجيالنا المسلمة وهي مزودة بنفس السلاح الذي كانت "أوروبا" قد شهرته في وجوهنا.

ولعل أولى لمساته التحسسية المباشرة لهذه الحضارة باشرها وهو يقود "الأنصار" في الحرب العالمية الأولى على الجبهة التركية الروسية، وأثناء وقوعه في أسر الروس، ومكوثه في مدينة "كوستورمه" على ضفاف نهر "الفولغا" أسيراً مدة ليست بالقصيرة، وخلال هروبه من الأسر عبر ألمانيا والنمسا ودول أوروبية أخرى.

ولا شك أن عقله الموسوعي الكبير كان قد سجل الكثير من الملاحظات والإنطباعات عن هذه الحضارة، وأغلب الظن أنه اطلع بعد ذلك -أو قبل ذلك- على منابع الفكر الأوروبي وفلسفاته الكبرى التي ساهمت في تشييد هذه الحضارة، لأن الضربة الموجعة القوية الموجهة إلى بعض من جوانب هذه الفلسفات والمبثوثة هنا وهناك من رسائله وكتبه، تشير إلى أنه كان على إطلاع جيد على أصول هذه الأفكار والفلسفات.

وقد دهشنا ونحن في مدينة "وان" عندما سمعنا من أحد طلبة "النور" بأن الأستاذ "النورسي" قضى فترة من عمره في هذه المدينة، وأنه كان يمضي الساعات الطوال كل يوم بين أجهزة الرصد وأنابيب الاختبار في المختبر العلمي التجريبي الذي كان "طاهر باشا" والي "وان" آنذاك قد استقدمه من أوروبا للأغراض العلمية.

وهو بهذا يعطينا الدليل على نزعته العلمية وعقله التجريبي العملي الذي كان الطابع العام لحياته وفكره. وقد غدا هذا السلوك العلمي والعملي للأستاذ موضع اهتمام طلبته من بعده، ومصداق ذلك هذه المكتبة العلمية الضخمة التي أنشأها إختصاصيون من طلبة النور في شتى المجالات العلمية الحديثة، والتي تهدف في المحصلة النهائية إلى البرهنة على أن الحقائق العلمية الثابتة لا يمكن أن تناقض الحقائق الدينية الثابتة، وأن النواميس الكونية المادية والنواميس الدينية تنبعان من منبع واحد، وتصدران عن مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى.

ونتابع المسير في دروب "النور" يحدونا صوت "النورسي" القوي النافذ رغم كل ما في قلبه من كلوم، ويحث خطانا هتافه الباسل الشجاع رغم كل ما في روحه من جراح، وطفقت صور من جهاده الشاق الطويل الدامي تتراءى لنا وتمرّ على صفحات مخيلتنا، فتثير فينا أحاسيس الإعجاب بالعظمة الإنسانية عندما تعلو وترتقي حتى تبلغ أقصى مداها، وقمة عبقريتها، ونتساءل مشفقين:

تُرى أي مصير رهيب كان ينتظر تركيا، لو لم يقيض الله سبحانه وتعالى

لها هذا الرجل، في وقت بدأت فيه فؤوس الحقد، ومعاول الهدم تعمل على زلزلة الإيمان وتقويض بنيانه ومسح آثاره من البلاد؟!

ويتراءى لنا طيف (الأندلس) شاحباً باكياً وقد انحسر عنه الإسلام وغادره إلى غير رجعة الإيمان....

* * *

الفصل الأول

صورتان

في البدء.. كنتُ استشف صورتك وأرسم ملامح شخصيتك وأتخيّل معالم إنسانيتك، في لمعات فكرك، ونتاجات ذهنك، وخلجات روحك، وإشراقات قلبك.. وأنا أقرأ رسائلك وأغوص في أنوار كلماتك، وأرفّ في أضواء عباراتك.. أو وأنا أحلق في أجواء أشواقك.. أو وأنا أصغي إلى أنين روحك الغريب المعذب، وأتسمّع عن كثب لنبضات وجدانك الأسيف الأسيان.. فأراك من خلال ذلك كله — إنساناً هو القمة في الإيمان، وداعية إسلامياً هو الجبل الأشم في الصلابة والصمود، ومفكراً هو البحر في عمقه وسعته وشموله، وقلباً ندياً هو الربيع في روائه وخصبه، والينبوع الثر في عطائه، والنهار الضحيان في إشراقه، وروحاً هو الحديد في قوته، والبرق في خطفته ولمعانه، ولساناً هو السيف البتّار في تقطيع سدف الظلام وتمزيق حبائل الجحود والإنكار.

وشاء القدر أن ألتقى "صورتك" مرةً بين ثنايا الكتب، وعلى صفحات المجلات، التي شرعت – في الآونة الأخيرة – تكتب عنك، وتتناول سيرتك بالدراسة والتحليل، فجلستُ أتفرس فيها فاحصاً، وأمعن النظر مدققاً، راغباً

في سبر غورها والتعرف على ما توحيه من أفكار، وما تشف عنه من معانٍ.. فراعني هذا النبل الذي يتقطر من جبينك العريض الوضاء، وهالني هذا النفاذ لبريق عينيك الذي يحسّ المرءُ إزاءَه بأنه أمام قوة من قوى النفس الغامضة التي تستحوذ على القلوب والعقول وتنفذ إلى مداخل النفوس دون استئذان أصحابها..

وشدهني شمم الأنف الدقيق الأنوف من غير كبرياء.. وطالعتني شبه ابتسامة وادعة مطمئنة على فم ملموم بصرامة من غير قسوة، وكأن شفتيه تطبقان بقوة على سرّ من أسرار الوجود وتشدّان بصلابة على حقيقة الخلق والحياة، ولكنهما -رغم ذلك- تنتظران لحظة العطش الروحي والظمأ الفكري، لتفيضا بحاراً وتسكبا أنهاراً، ومن تحتهما ذقن صغير مدبب حاد، يُشعِركَ كلما أوغلت النظر في تقاطيعه ومنحنياته بأنه إطار رجولة فذّة نادرة في الرجال، وسور شجاعة خارقة قلّما تلمس مثلها في الشجعان..

وتطابق الرسمان، وتماثلت الصورتان، صورتك المعنوية المتخيلة من أفكارك ومعانيك في رسائلك وكتبك، وصورتك الشبحية الجسمية المرسومة على صفحات القراطيس والأوراق.. وهي قلّما تتماثل أو تتشابه في أحد من الناس كما تماثلت وتشابهت في شخصك العظيم..

في زحمة الأحداث

وطفقت أتتبع بصمتٍ مهيبٍ آثار خطاك الهادئة الرزينة على دروب السنين والأيام، الطافحة بالمرارة والألم والدموع. وأفتش عنك في مزدحم الأحداث المرعبة الدامية التي لقّيت عالم الاسلام من أقصاه الى اقصاه، وأغرقته بطوفان هائل مخيف من أفكار الكفر والجحود والإنكار، وفرضت على الشعب المسلم مذاهب الغرب وأفكاره ونظرياته وكل ما يُبعده عن دينه، ويحجزه عن إيمانه - فألقاك شمساً ساطعة في سماء الإيمان، ونوراً متوهجاً في قلب الظلام الكثيف، تحمل بصدق وشرف لواء المنافحة عن الفكر الديني الأصيل، وتتصدّى بقلب جسور للذود عن حصونه وقلاعه التي لا ترام.

عاشق القمم

وأمضي مع الاحداث اسائل عنك.. أتسلق السفوح وأتوقل القمم.. واصّعد الى الأعالي.. وانا اصرخ ملتاعا

مَمَنْنْ يأخد بيدي الى وكر هذا الصقر الدي ماعشق شيئا في حياته، كما عشق السمو والعلو والارتفاع..؟

من يدلني عل طريق هدا النسر العظيم الدي ظلْ يرفرف بجناحيه في سماوات المعاني، واجواء الافكار منذ نبتت قوادم ريشه، فلم يعي ولم يتعب حتى آخر خفقة من روحه واخر نبضة في قلبه..؟.. يا عاشق القمم.. يا محب الاعالي.. اي شوق عظيم يشدّك الي السمو فوق الصغائر والتوافه، ويجذبك الى عالم الهموم العظيمة والمشاغل الخطيرة...

أي حنين ممض في أعماقك يدفع بك إلى حيث المراقي الصعبة، والقمم الشامخة والمنعطفات الحادة الزلقة.. أي مغامر أنت..؟ تهفو الى المخاطر كما يهفو الرضيع الى ثدي امه.. وتتوق الى المصاعب والشدائد كما يتوق الظمآن الي قطرة الماء.. فإذا بك – مند صباك – تجول بين عوالم الافكار والمذاهب والاديان، جولان الباحث المنقب المتعطش إلى المعرفة، فتكتشف أن الإسلام أعلاها قمة، وأسماها فكراً، وأصدقها حديثا، واشرفها مجدا، فترقى إليه وتجوز قممه الواحدة بعد الأخرى، سالكا شعابه شعباً شعبا حتى تصل إلى "حراء" قلبك فيغمرك نوره، وتحفك سكينته، فيطفح وجودك كله ايماناً وتصديقاً ليفيض بعد ذلك جداول وأنهاراً في "رسائل النور" التي يغتسل بأضوائها اليوم عشرات الألوف من أتباعك وطلبتك..

الرجولة المبكرة

لم تعرف عبث الطفولة في حياتك، ولم تغرك ملاعب الصبا، ومراتع الأحداث من أترابك، فقد كبرت مكبراً.. وإنبجستْ في روحك -وأنت ما زلت غضّ الإهاب- هِمَمٌ وإرادت لا يعرفها إلاّ الفحول من عظماء الرجال، وحملت على كاهلك الصغير هموماً ذهنية ومشاغل فكرية لا يحملها إلاّ العباقرة من الرجال الناضجين المدلفين إلى العقد الرابع من سني حياتهم..

تحضر في الليالي الهادئة مجالس والدكَ الشيخ التي يرتادها عادةً علماء القرية وشيوخها وذوو السنّ فيها، وتجلس في طرف قصيّ من المجلس، تتسمع بلهفة إلى أحاديثهم والى ما يديرونه من حوار بينهم، في قضايا الوجود والحياة والإنسان..

ويروعك مصير الانسان على هذه الأرض ونهايته المفجعة وصيرورته في خاتمة المطاف الى شقّ صغير من الأرض، تحت كومة من التراب المهيل.. وبقدر فرح روحك بالحياة، وإبتهاج قلبك بالوجود، كانت فكرة "الفناء" تصدمك وتؤرق فكرك، وتَقِضّ مضجعك.. وسيف "الموت" المصلت على رؤوس الأحياء في كل ساعة بل في كل لحظة وهو يحزّها حزّاً، يثير مكامن الرعب والخوف في نفسك..

وبقيت حائراً بين طرفي هذه المعادلة الصعبة.. لماذا نموت إذا كنّا دُفِعنا إلى الحياة دفعاً، وقُذِفَ بنا إلى الوجود قذفاً دون إرادةٍ أو رغبة منّا..؟. ونحن البشر من أين أتينا..؟ وإلى أين نحن ماضون؟ ولماذا؟ وكيف؟. وهنا في هذا

الظلام النفسي المخيف، تتألق في ذهنك اللمّاح فجأة فكرة "الخلود" ويشرق القلب بنور "البقاء" وتتوهج الروح بأقباس من أنوار الغيب الدائم، وأضواء من نور الأزل والأبد.

وتتعمّقُ فكرةَ "الموتِ" وتناقشُ مقولة الفناء بمنطقك الإيماني لتقرر بعد ذلك أن "الموت" هو لون آخر من ألوان الحياة، وصورة أخرى من صور الوجود، وإننا نموت لنحيا من جديد كما تموت حبة القمح -تجوزاً- في بطن الأرض، لتبعث حية في سنابلها مرة أخرى.

وفي لحظة إنتشاء ذهني، وإمتلاءٍ بالوجود والحياة تسأل نفسك هذا السؤال:

لو - خُيِّرْت يا سعيد - بين العدم والفناء أو الخلود والبقاء ولو في جهنم الحمراء، فماذا تختار؟

وتجيب على سؤالك.

إنني - لا شك - سأختار البقاء والخلود ولو في جهنم على العدم والفناء..

الخلود و الفناء

ان روح الحياة تغمر كل شيء، وتمد كل شيء باسباب الوجود والبقاء وان العوالم والاكوان من اصغر ذرة الى اعظم جرم فيها قد انبثقت عن "الحي"، "القيوم"، "الازلي"، "الأبدي" لذا فلا وجود حقيقياً للموت او الفناء في عالم كل ما فيه مشحون بطاقات الخلق والإبداع، وفي أكوان كل ما فيها ينبض بالحياة والحركة..

والإنسان سيد هذه الأرض، وأحد سكنة هذا الكون، هو أيضاً محكوم بسننه ونواميسه، مخلوق للخلود والبقاء، وما الموت في حياته إلا عرض طارئ على طريقه، وجسر لابد من مروره عليه إلى ذلك العالم الحي الجميل الخالد.

وتظل فكرة "خلود الإنسان" وإمتداد حياته في الآتي من الازمان والآباد، المحور الرئيسي الذي تدور عليه أفكارك ويقوم عليه صرحك الذهني وبناؤك العقلي في كل ما سطرت من كتب، أو أمليت من رسائل، لأنها الفكرة التي من دونها تبدو الحياة تافهة رخيصة، وعبثاً لا طائل من ورائه، ومأساة رهيبة ينبغي ان توقف عند حد، كما يفعل الكثير من اليائسين في أرجاء العالم، عندما ينهون حياتهم بطريقة ما من طرق الإنتحار.

فاذا كان الله – سبحانه وتعالى – قد اختار لنا الحياة، وحكم علينا بالخلق والإيجاد، وكتب لنا الخلود.. وإذا كان "الموت" هو النفق الذي نمر

من خلاله لنواصل "حياتنا" من جديد على الجانب الآخر من عوالم "ما بعد الموت"...

إذا كان الأمر كذلك كما يعلمنا الإسلام فإن الخوف من "الموت" هو احد أوهامنا الكبرى الذي ينبغي أن نتحرر منه، ونلقيه عن كواهلنا المتعبة جانباً. فالتحرر من عقدة "الخوف من الموت" هو أولى مراحل الإيمان الذي أشرَعتَ قلمك من أجل تعميقه في النفوس وترسيخه في الأفئدة، وجعله القاعدة والأساس في كل فكر ايماني واعٍ، ووجدان إسلامي سليم. وانظر إليك مستعرضاً سيرتك على ضوء هذه المفاهيم والأفكار فأجدك النموذج والمثال الذي يمكن "للإيمان الشجاع" أن يفعله في الإنسان، فكنت في سلوكك وتعاملك مع الاحداث ومعايشتك للواقع، القدوة والمثال لتلاميذك ومحبيك، في قلبك المقتحم الشجاع وجنانك الثابت الهادئ، وضميرك النقي الطاهر الذي لم يلوث ابداً رقم كل معارك الفكر التي خضتها مع الخصوم والأعداء ، ورغم كل ما بذلوه لك من وعد أو وعيد، ورغم كل ما أحاطوك به من صنوف الإرهاب من سجن ونفي وتشريد ورغم مئات المحاكما ت التي أقاموها لك هنا وهناك من المدن في طول البلاد وعرضها.

النظرية و التطبيق

وتمضي في طريقك على هدي "الفكر" الذي بتَّ تُعايشُـهُ معايشة الحياة، وتستوحيه فيما تأخذ وتعطي، وتقبل وترفض، وتستشيره في كل ما تتخذه من مواقف إزاء أحداث الحياة، ووقائع الأيام، فكنت في كل ذلك مخلصاً لفكرك وإيمانك وعقيدتك، التي غدت الهواء الصافي لرئتيك، والنبض الحيّ لقلبك، والدم النقي لكيانك..

فأنتَ لم تعرف في حياتك أبداً هذا الانفصام الذي نشاهده عند الكثير من المفكرين المرموقين بين النظرية والتطبيق، وبين الفكر والعمل وبين العقيدة المجردة في الذات وبين السلوك الشخصي، والتعامل مع الأحداث والوقائع، حيث الإختبار الذي يتهاوى عنده الكثير من أصحاب الأفكار والعقائد، والمحك الذي قلّما يثبت عنده إلاّ القلَّة القليلة منهم. أما أنت، فقد توحّد عندك الفكر والعمل، وتعانقتْ لديك النظرية والتطبيق، واقترنت في ذاتك المعرفة والسلوك، ولعلّ هذا هو سرّ قوتك، واحد أسباب قوة شخصيتك التي هزّت القلوب الميتة، وزلزلتْ النفوس الساكنة، وحركت الأرواح الهامدة، وألهبتْ العقول المنطفئة، وبهرتْ فيما فجرتْ في قلبك من عيون الكلام عشرات الألوف ممّنْ قرأ لكَ، وأصغى إليك.

ايجابية العقيدة

لم تعـرفْ "السـلبيات" في حياتـك، ولم تجـربْ الانفلات مـن دائرة "الحدث" أو التقوقع خارج "المواقف والأزمات" لأنّ "السلبية" فكراً وعقيدة -عندك- هي نوع من أنواع "العدم" يجب ألاّ يتورط "المؤمن" فيها، لأنها تجره تدريجياً -سواء شعر بذلك أم لم يشعر- الى عملية تجميد فكري، وموت عقائدي، تلقي به بعيداً جداً عن تيار "الحياة" المتدفق بالتجديد والإبداع.

والسلبية -سلوكاً- عندك أيضاً مناقضة لإيجابية "العقيدة" التي ينبغي أن يكون لها موقف معين من كل حدث من الأحداث التي تواجهها، ومن كل واقعة جديدة يقذف بها إزاءنا تيار الزمن متحدياً إمكاناتنا العقيدية والفكرية.

فعندما تشتعل الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وتشارك الدولة العثمانية فيها، تسارعُ أنتَ بإيجابية متفتحة على هذا الحدث التاريخي الهام بتشكيل فرق الأنصار، وقيادة جماعة من طلبتك لمقاتلة "الروس" على الجبهة التركية الروسية، وتبلى أنتَ ومَنْ معك من خلَّص تلامذتك بلاءً حسناً يعترف لكم به القادة العسكريون، ويشكرونه لكم.

وبذلك أثبتت تجربتكم الإيمانية في ساحات الحرب وغمرات المعارك نجاحاً منقطع النظير، أكّد صدق منهجك الملتزم بوضع "العقيدة" موضع الإمتحان الفعلي في كل الميادين الحياتية، لتثبت قدرتها الفائقة على التفاعل

الإيجابي مع الحدث بمفاهيمها ومعطياتها، ولتؤكد إمكانياتها على مواجهة التحديات في كل زمان ومكان.

وفي هدوات الليالي، عندما يصمُت السلاح، وتسكتُ ضوضاء الحرب ويلقي المتحاربون بأجسامهم المنهوكة في أحضان خيمهم، وبين حفر خنادقهم، يأبى فكرك اليقظ المشدود دائماً وأبداً الى حقائق الإلإ سلام أن يستجمَّ أو يستنيم للراحة والسكون، فتملي على أحد تلامذتك المقربين "الملا حبيب" كتابتك القيّم "إشارات الإعجاز في مظان الايجاز" وهو كتاب في التفسير، دون أن يكون تحت يدك -وأنت في ساحة حرب- أي مرجع أو مصدر في التفسير واللغة سوى "القرآن الكريم" معتمداً في تصنيفه على محفوظاتك فيما قرأت من كتب اللغة وعلوم الدين في صباك وشبابك.

نظرات مستقبلية

لقد حطّمت قيود روحك، وهدمت أسوار عقلك، فغدت بصيرتك قادرة على النفاذ الى الأزمان الآتية والعصور القادمة، فأطلَلْت على الأزمان وأبصرت ما تحمله الى الشرق من أهوال ومخاطر.

كانت إرهاصاتُ المستقبل أجراسَ نُذُرٍ تدقّ في أعماق روحك، وأصوات تحذير تتجاوب أصداؤها في جنبات فكرك ووجدانك. لقد أحسست مسبقاً بأن أعتى العواصف وأشد الرياح ستهبُّ من "أوروبا" حاملة إلى العالم الاسلامي فِتناً كقطع الليل المظلم، وزلازل تزلزل أفكارَهُ وعقائِدهُ، وتهزّ عقله ووجدانَهُ، وأن "أوروبا" القوية بعلومها وفكرها وحضارتها، ستجد في شعوب الشرق عامةً، والشرق الإسلامي خاصةً لقمةً سائغةً وفريسة سهلة المنال لما كان يعانيه الفكر الإسلامي من ركود وهمود وتخلّف، ولما كان قد آل إليه الروح الإسلامي من انكفاء على الذات وانطواء على النفس، دون أيّ إحساس بضرورة التفتح على الحياة بمعطياتها الحضارية الجديدة.

فأسرعتَ تقرع أجراس الخطر، وتطلق صفارات الإنذار، وتنبه المسلمين لما سيحيق بهم من أخطار فدعوتهم للانكباب على دراسة العلوم الحديثة، وطالبتَ بأدخال هذه العلوم الى المدارس الدينية لتدرس جنباً الى جنب مع العلوم الدينية، وتوجهتَ الى "إستانبول" وسعيتَ بكل جهدك لإنشاء جامعة إسلامية تتبنى فكرتك في تدريس علوم الطبيعة والحياة والفلك الى

جانب العلوم الدينية والفقهية والدراسات القرآنية، لكنك لم توفق في مسعاك، فلم تلق أذناً صاغية من حاشية قصر "يلدز" المقربين.

وتحسّ -بفراسة المؤمن- بهول المأساة القادمة وتشعر -بحدس المفكر- بقتامة المصير الذي ستؤول إليه الشعوب الإسلامية اذا هي لم تتدارك أمرها ولم تصحُ من هذا النوم الفكري الثقيل والسبات الحضاري العميق.

وتهبُّ أنتَ وتصرخ في آذان النيام: أن استيقظوا وتحفّزوا واستعدوا.. فهذه "أوروبا" القوية الفتية قادمة اليكم بكل غرورها وصلفها وكبريائها قدومَ العواصف العاتية، والرعود القاصفة التي ستهزّ عقائدكم من الجذور، وتأتي على بُنى حضارتكم من القواعد.. أيها المسلمون: امسحوا كرى القرون عن أعينكم.. وإغسلوا وَسَنَ الغفلة عن أجفانكم واستلوا في وجوه الغزاة القادمين سيف العلم والمعرفة الذي به يحاربونكم، وبسلطانه يستعبدونكم.. وأوقفوا زحوف جحافلهم بإدّراعكم دروع الإيمان، وتحصنكم بحصون الإسلام.. وأقتبسوا لظلام أرواحكم، وصقيع أفئدتكم أقباساً من روح "محمد **ق**" وأسناءً من سنى فؤاده الذي ما نام عن ربّه طرفة عين، ولا غفل عن ذكره خفقة قلب..

ورغم ما في كلامك من بساطة الصدق، وما في صوتك من وضوح الحق، ورغم ما كان يترشح على حواشي أقوالك من نبرات المحبة والإخلاص، إلاّ أن بني قومك لم يفهموا عنك ما تريد، ولم يدركوا أبعاد كلامك، وأعماق صرخاتك.. وسرعان ما شمّرتْ الجهالة الجهلاء عن سواعد الجد، وأنتفضت السلطة العمياء بالمرتزقة من مؤسساتها الدينية لتعتِمَ على أفكارك، وترش على الأضواء التي تلمع كالبروق الخاطفة من سماء قلبك

وروحك – ليلاً من ليالي قلوبها، وظلاماً من ظلمات أرواحها لتحولَ بين المسلمين وبين التلقي عنك، والإقبال عليك، والتتلمذ في مدرسة أفكارك وآرائك..

آلام الغربة

وأحسستَ بحاجز زمني سميك يفصلك عن قومك، وبسور فكري يقوم عالياً بينك وبين أبناء دينك وعقيدتك.. فأنت غريب بينهم، لا يفهمون عنك ما تقول، ولا يدركون ما تعني وتريد...

وتأسى ويغمرك الحزن، ويتعالى من جديد نواح الغربة في روحك الحزين، ويرتفع انين اللوعة المضناة في قلبك الأسيان.

وتعود لمعانقة غربتك نفسها التي عانيتها صابراً في مدينة "قوصتورمه" على ضفاف "الفولغا" عندما وقعت جريحاً في أسرِ الروس.. وفي الليالي الباردة الطويلة الحالكة السواد، كان خرير "الفولغا" الحزين وحده الذي يواسي غربتك ويؤنس وحشتك.. واليوم تشعر أن جراح روحك بين قومك أشدّ عليك من جراح جسمك.. وتجد أن غربتك بين أبناء أمّتك في بلاد الأناضول أكثر ايلاماً وتسهيداً من غربتك هناك بين الأعداء في بلاد الروس..

ولكن المدد القرآني العظيم "حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل" يأتيك على حين غرة عندما تشعر بعجزك وضعفك، فيهبك من القوة ما تستطيع معها أن تهرب من أسرك رغم ما تركته الجراح في جسمك من نحول وضعف..

والآية نفسها تهبك اليوم أيضاً من القوى ما تستطيع معها أن تهرب من هذا الأسر الروحي، وتخرق الحواجز، وتهدم الأسوار، لتوصل كلامك إلى الآخرين، وتؤدّي رسالتك التي نذرت لها وجودك كله..

مخاض العاصفة

كانت الدوائر الإستعمارية الغربية المتربصة قد مهدت لعملية تسللها الى جسم العالم الإسلامي المفكك المريض، والإجهاز عل رمز وحدته الشاحبة في البقية الباقية مما يسمىّ بالخلافة الإسلامية في "استانبول" بغزو فكري منظم لمعاقل أفكارنا الكابية الخاوية، وحصون مؤسساتنا الثقافية الفارغة الجوفاء.

وقد استطاعت هذه الدوائر –بمساعدة المدارس الإستشراقية– أن تستقطب الى أروقتها الفكرية والثقافية والسياسية أنبغ رجالنا وأذكاهم من مفكرين وسياسيين وقادة عسكرين، حيث تمكنت أن تجعل منهم جسوراً ومعابر تنقل من فوقهم ومن خلالهم هيمنتها السياسية والإقتصادية والفكرية والعسكرية أيضاً الى بلاد هذا العالم البكر بطاقاته وثرواته ومواقعه الإستراتيجية الهامة، وذلك بعد أن تهاوت شجاعة "الروح المسلم" المثخن الجراح في سجون الجهل والتخلف، وتساقطت الألمعية الشمّاء، والرجولة الحقّة في مهاوي العجز والكسل، وغاضت البطولة السامية الأصيلة، وإختفى الصدق والحق والعدل ليحلّ محلها في سوق السياسة المعتمة السوداء الباطل والزيف والكذب.

وتأتي العاصفة –كما توقعتَ تماماً– مظلمة محلولكة السواء، ويشتد عواؤها ويثور ذلك النوء المخيف الذي حذّرتَ منه حاملاً معه أفواجاً من الرعب، وفجأةً ينشقّ الظلام عن مخلوق هو أشدّ ظلمةً من كل ظلام

الأرض. وتتمخض العاصفة لتلد جنيناً مسخاً، لُعْبَتُه الموت، وشرابه الدم، وقوته الحقد، ذلك المخلوق الذي انزاحت عنه العاصفة هو "دجّال المسلمين" ، آتياً قومه بكل أحقاد الصليبية الموتورة، وسموم الماسونية اليهودية على الإسلام والمسلمين.

البطولة المصنوعة

في أزمان الخواء الروحي الذي يُفقِدُ الشعوبَ أصول جلالها، ويجفف معين بسالتها، وفي عصور الهبوط النفسي والإنحدار الفكري الذي يسببه الكسل العقائدي والإسترخاء الإيماني لدم الأمم -في مثل هذه الظروف القاسية الماحلة الجدباء التي تمرّ على الشعوب والأمم كما تمرّ الأوبئة الفّتاكة والأعاصير المدمرة- تختفي البطولات وتتوارى العبقريات وتشح الرجولة وتُصابُ الشجاعة نفسها بالترنح والسقوط وسرعان ما تفرغ ساحات النضال من الرجال الشجعان، ويخلو الميدان لأشباه الرجال لكي يلعبوا لعبة الشجاعة ويمثلوا أدوار البطولة على مسارح شعوبهم.

فتحاول الغربان أن تتسامى الى أوكار النسور المنيعة، وتطمح الثعالب أن تثب على عرائن الأسود.. وهذا ما وقع تماماً عندما سقط شعب تركيا المسلم -في أعقاب الحرب العالمية الأولى- بين شدقي الوحش الإستعماري الكافر، وباتت -استانبول- قبلة أنظار المسلمين آنذاك تئن أنيناً موجعاً تحت وطأة أقدام الغزاة الأجانب، وتنزف نزيفاً راعباً يبعث الرعشة في أرواح المسلمين المشدوهين المترقبين لساعة الخلاص الانقاذ على يد "بطل" تبعث به المقادير ليقودهم في معركة مصيرية حاسمة ضد الأعداء المحتلّين. وكان الدهاة القابعون في الدهاليز المظلمة، والأقبية المعتمة، من ساسة الغرب ورجال مخابراتهم، بالتنسيق مع خلايا "الماسونية" المنبثة في المراكز الحسّاسة من أجهزة الدولة قد وضعوا في حساباتهم سبيل مواجهة هذا الترقب الخطر لدى الشعب المهزوم،

فهيأوا لهذه اللحظة النفسية الحرجة "الرجُلَ" الذي يمكنه أن يلعب لعبة "البطل" المطلوب بنجاح؛ ويمثل دور الزعيم المنقذ، والمحرر العظيم للبلاد من جيوش الغزاة المستعمرين. وهذا الرجل الذي اصطنعوه لأنفسهم، وألبسوه ثوب البطولة القشيب، ودفعوا به الى ميادين الحرب والسياسة هو الدجال نفسه المعروف جيداً لدى هذه الأوساط بعدائه اللدود للإسلام، وبحقده العظيم على كل ما يمت للإيمان بِصِلَة. وهو بما سيحققه من انتصار – قد خُطّط له مسبقاً – سيغدو رجل الشعب الأول الذي سينفض عنه وعن بلاده وشعبه، الاسلام كما ينفض أحدكم الغبارَ عن حذائه– كما أعلن ذلك واحد من أتباع هذا الرجل.

* * *

كانت روح هذا الرجل المسعور تعوي عواءً مخيفاً، وتنبح نباحاً مرعباً في ظلمات حقده الأسود الدفين على (الإيمان) في أعماق نفسه المنخورة الجوفاء، ولكنه وهو يقود شعباً مسلماً في معارك التحرير كان يواري حقيقته ويكتمها عن أبناء شعبه الذين التفوا حوله ومنحوه حبهم وثقتهم لأنهم توهموهُ بطلاً من أبطال الإيمان، وقائداً فذّاً من قادة الاسلام، يتقدم لتحرير وطنهم وتطهيره من الرجس الاستعماري البغيض.

فالانتصارات وحدها لم تكن كافية لتبني مجده، وتعزّز مركزه القيادي لو لم يتظاهر أمام الجموع بغيرته على عقيدة الامة واحترام دينها.

وهكذا كان، ولكنه لم يكد يستولي على زمام الأمور، ويقبض على ناصية الحكم حتى كشف عن حقيقته، وازاح الستار عن دخيلة نفسه، وبدأ فأسه المكتوم ومعوله الصامت، يتنقل بين اركان الفكر الاسلامي والروح الايماني،

ليقوّض اركانه ويزلزل بنيانه، مفصحاً بذلك عن نفس كافرة مشحونة بالكراهية للاسلام، ودخيلة مطوية على انتقام خارق وقح من الايمان والمؤمنين صنعت منه سفّاحاً دموياً متأهباً دوماً للقيام بهجمات مليئة بالغضب والوحشية ضدّ معاقل الاسلام ومؤسساته الايمانية والفكرية.

أيّ أعماق روحية كانت تضطرم في وجدان هذا الشعب وهي تواجه عاصفة الكفر الهوجاء التي أثارها هذا الرجل الحاقد المأفون في سماء الاسلام؟ وأيّة أشواق سامية طاهرة كانت تبعث من قلب هذا الشعب خمس مرات في اليوم والليلة وهو يقف في خشوع بين يدي ربه، وقد أراد لها "الدجال الصغير" أن تظل حبيسةً مخنوقةً مقطوعةَ الأسباب بالسماء وربّ السماء..؟

وهذه المساجد التي شيدها سلاطين بني عثمان، وأودعوا في كل حجر من أحجارها، وفي كل لبَنَةٍ من لبناتها حبةً من قلوبهم، وفَلَذَةً من حشاشة أرواحهم، وقطعة من حنايا ضلوعهم، ها هي تتحول اليوم بأمر هذا الطاغية الدموي العنيف الى مخازن ومتاحف ومرابط لخيول جندرمته وجلاوزته، بعد أن كانت أروقتها ومحاريبها تتضامُّ على أَقْدَسِ أقدَاسِ الانسان في شرف عبوديته لله لله ، وجمال خشوعه وتضرعه لخالقه الكريم.. وتلك المآذن التي تتعالى شامخة ساميةً شموخ الاسلام وسمّوَ الايمان. والتي تبتسم في علوها للسماء. وتشرق في عليائها فرحةً بالنداء السماوي العظيم الذي يتردد من فوقها مذكراً بالآباد والآزال "الله أكبر" خمس مرات في اليوم.. ها هي اليوم تظلّلها غمامات من الكآبة الكابية الحزينة وتنعقد فوق أهلتها سحُبٌ من الشَيَده الشاحب الدامي حيث تفتقد لأول مرة ذلك

النداء النديّ الحنون الذي كان يتردد من فوقها منذ مئات السنين.. وصمّم هذا المتآمر الحاقد على الاسلام في خاتمة المطاف أن يقطع شعب تركيا المسلم عن مصادر عقيدته ومنابع ايمانه وركائز تكوينه الثقافي والحضاري، وذلك بحجزه عن "الحرف العربي" الذي نزل به القرآن الكريم ودُونَتْ به السنة النبوية المطهرة، واعتماد الحرف اللاتيني في الكتابة والتدوين لكي يتسنّى له أن ينشئ الأجيال التالية من شعبه على جهل مطبق بلغة القرآن الكريم التي لا يمكن لأي مسلم أن يفهم تراث دينه وعقيدته أدنى درجات الفهم من دونها، ثم عمد في خبث ووقاحة الى ترجمة القرآن الكريم الى التركية بأبجدية الحرف اللاتيني متحدياً بذلك فتاوى العلماء من أصحاب الاختصاص بحرمة ترجمة النص القرآني حرفياً الى أية لغة أخرى. وحتى "الآذان" الذي توارثته الشعوب الاسلامية من غير العرب جيلاً بعد جيل، والذي تردده مآذن جوامعها ومساجدها موقوفاً كما ثبت نصه في السنة النبوية المطهرة، أبى "الدجال السفيه" إلاّ أن يخترع له ترجمة تركية أفقدته الكثير من الرواء والحنو والجمال، وفرض على المؤذنين أن ينادوا به للصلاة.

ومضى هذا المعجب المفتون بالغرب، يقلّد الغربيين في كل شيء تقليداً أعمى، ففرض على شعبه أن يرتدي "القبعة" شعار التمدن الغربي، كما توهم، وجعل العطلة الأسبوعية الرسمية يوم الأحد من كل أسبوع بدلاً من يوم الجمعة عطلة المسلمين.. الى آخر ما أصدره من قوانين مخالفة بنصها وروحها للشريعة الاسلامية الغرّاء.

رجل القدر

تُرى ألمثل هذه الأهوال التي أحدقت بالاسلام والمسلمين قد رصدك القدر واحتفظ بك الغيب يا سعيد؟

ليت شعري ألمثل هذا الاعصار الكافر المدمر الذي يسعى الى قلع شجرة الايمان من الاعماق اختارتك السماء يا رجل الايمان وخادم القرآن، لتنهض من دونها وتحامي بلسانك وقلمك عنها؟...

لقد دقّتْ ساعة المعركة الرهيبة، وآن أوان الصراع المرير بين قوى الخير والنور، وقوى الشر والظلام.. إنه ألف معول ومعول يتحرك في وقت واحد لينهال بضرباته الحاقدة على اصول الإيمان، وجذور العقيدة الممتدة عميقاً في قلب هذا الشعب ووجدانه وضميره، وإن ألف سهم وسهم توجَّهُ مجتمعةً الى قلب الحقيقة الكبرى التي قَدِمَ بها محمد **ﷺ** الى البشرية جمعاء، وإنّه ألف ليل وليل يزحف في ركاب الطاغية الكبير ليسدّ منافذ النور ويغمر مسارب الشمس بدخان أسود كثيف..

وتخاطب نفسَكَ بلسان الحال:

– انهض يا سعيد.. قمْ وارفع في حومة هذا اليأس المحيط عَلمَ الرجاء، وأشعل في ظلامه الرهيب بصيص العزاء والأمل.. قم يا رجل القدر.. عانقْ قدرك.. واحتضنْ مصيرك.. فلو كان لك ألف نفس لفديتها جميعاً – دون تردد – الواحدةَ تلو الأخرى – في سبيل حقيقة واحدة من حقائق القرآن، وركن واحد من أركان الايمان..

فليس – كاليوم – يومٌ يا سعيد – يحاصَرُ فيه الايمان وتتناوشه أقذر الألسنة والأقلام ويبيت هدفاً لسهام الرماة من أدعياء العلم والمعرفة المفتونين بمدنية الغرب وحضارته. وتستنفر كل طاقاتك الروحية والفكرية، وتحفز كلّ ما انطوت عليه أعماقك من قوى ايمانية وأمداد قرآنية، وتعزّز صمودك الايماني، وتقف بالمرصاد تصدّ بقلمك ولسانك الهجمات المتوحشة التي تشنها أجهزة الإعلام السياسية والثقافية على معاقل الايمان والاسلام تحت مظلة السلطة الحاكمة وغطاء سلطانها.

الأسطورة تحكم

كانت أسطورة "الدجال الصغير" قد تضخمت وكبرت واحتلّت مداها الواسع في أحلام الناس ومخيّلاتهم ليس بسبب ذلك الانتصار الذي أحرزهُ على الغزاة المستعمرين فحسب، بل لِما أضفَتهُ على شخصه أجهزة الاعلام في الداخل والخارج "والتي تحركها من وراء ستار الدوائر الماسونية واليهودية" وَلِما بدأ ينسجه حوله الأتباع والمقربون من قصص وخرافات سياسية تظهره فيها بمظهر الزعيم المقدس الذي يتكلم الشعب بلسانه اذا تكلم ويريدُ الشعب ما يريده اذا أراد.

وأمثال هذه الأساليب كانت وما زالت قادرة على أن تمنح القوة والصولة حتى للبلهاء والأغبياء من الحكام والملوك فتتسابق قطعان الرعاع مهينةً تحت أقدامهم، وهي مأخوذة مفتونة بسحر الأسطورة، وسلطان الخرافة.. وهكذا كان المجلس النيابي الملموم من الأتباع والأنصار مسحوراً مأخوذاً مغمض العينين، معطّل العقل، مستعداً أن يضع توقيعه على كل ما يريد "الدجال السفيه" لهذه الأمة من ابتعاد عن الإيمان وتنكّر للإسلام.

وكان لابدّ من صاعقة قوية ينتفض على صوتها النيام، ويصحو على رعدها المأخذون المسحورون، وقد كان حيثُ بادرتَ الى تفجير احدى قنابلك الايمانية والفكرية في قاعة المجلس، فتوجهتَ ببيانك الشهير الى اعضاء المجلس مصدّراً بهذه العبارة المثيرة: "إعلموا أيها المبعوثون: "انكم لمبعوثون ليوم عظيم". وقد تولى إلقاءه نيابة عنك النائب "كاظم قره بكر"

وكـان وقـع هـذا البيـان عظيمـاً علـى النـواب فقـد أحـدث فيهـم هـزّةً فكريـة، وانتفاضـة روحيـة، ويقظـةً قلبيـة إيمانيـة؛ حملـتْ سـتين نائبـاً منهـم للعـودة الى حظيرة الايمان واقامة شعائر الاسلام.

وقـد أثــار هـذا التحـول الايمـاني عنـد هـؤلاء النـواب حفيظـة "مصـطفى كمـال" فأمـر باسـتدعائك لملاقـاته في ديـوان المجلـس النيـابي، ويتـم اللقـاء وتحدث بينكما مناقشة حادة تنتهي بهذا الحوار:

– لا ريـب أننـا بحاجـة الى أسـتاذ قـدير مثلـك، لقـد دعونـاك الى "أنقـرة" للاستفادة من آرائك السياسية، ولكن –أنظر– إن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان باكورة عملكم هنا هو بثّ الفرقِة في أهل هذا المجلس..

وتجيب أنتَ مشيراً اليه باصبعك في حدة الايمان

– باشا.. إعلم أن أعظم حقيقة تتجلّى بعد الاسلام إنما هي الصلاة.. ان الذي لا يصلّي خائن لله ولنفسه وللوطن، وحكم الخائن مردود..

ويضطر "مصطفى كمال" أمام جوابك هذا أن يعتذر منك على مضض، ويُنهي حديثه طاوياً صدره على غيظ مكتوم وحقد مستور.

مصائد الرجال

ما أكثر الشِبَاكَ على الطريق للسالكين، وما أكثرَ المصائد التي تُنصب في الزوايا والمنعطفات لإقتناص الرجال المرموقين، وما أكثر هؤلاء الرجال الذين يسقطون فيها، ويتهاوَون في حبائلها ليغدوا بين عشية وضحاها أُسارى في قبضة الطغاة من الملوك والحكام الذين يسخرون عقولهم وأقلامهم -إن كانوا من أصحاب الفكر و القلم- في خدمة سياساتهم وترويج مبادئهم وأفكارهم، بما يفلسفون من هذه الآراء، وبما يعطونها من أبعاد عقلانية وعقائدية -قد تكون خالية منها- حتى يمكنها أن تحظى بالأستجابة والقبول من لدن شعوبهم. أو يستأجرون سيوفهم -إن كانوا من أصحاب السيوف- في تعزيز سلطانهم وتثبيت حكمهم، وحماية عروشهم ممّن يريد الإنقضاض عليها، أو سحب كراسي الحكم من تحتهم.

ولكن، أنّى ، للصقور وعقبان الجو أن تطالها الشباك أو تتناوشها المصائد، أنّى لرجالِ الأقدار من ذوي الرسالات الخطيرة أن تطوقهم القيود الحريرية و تكبلهم أغلال الذهب و الفضة..؟

لقد أرادوا الإيقاع بك في أحضانهم، وإستدراجك للدخول في خدمتهم حين أصدرت حكومة "أنقرة" بأمرٍ من "مصطفى كمال" نفسه مرسوماً بتعيينك رئيساً للوعاظ شرقي الأناضول كلّه، مع بقائك عضواً في أعلى مجلس علمي وهو "دار الحكمة الإسلامية" و منحك قصراً من أجمل القصور لتقيم فيه بالمجان..

وتدرك مقاصدهم الخبيثة -ولا يخفى عليك- وأنت الذكي الأريب - ما يريدونه من ثمن لقاء مِنَحِهم وأُعطياتِهم.. وتثور نفسك، ويهيج فيك الإباء والشَمَم، وتلقي بكل ذلك في وجوههم، وترفض اعطياتهم ومنحهم، وتأبى ليدك أنت تمتد لشيءٍ من أموالهم، تماماً كما أبيت ورفضتَ في صباك -و أنت ما زلت طالب علم- أن تمتدّ يدك لقرش واحد من اعطيات وهدايا المحسنين من المسلمين لأمثالك وزملائك من طلبة العلوم الدينية، كما جرت عليه عادة القوم في ذلك الزمان.

وتظلّ طوال حياتك قمة منيعة تتلألأ بالطهر والجلال، لا تقوى على اقتحامها مغريات الدنيا، أو ينال من شموخها عتاة العالم، لأنك بالإيمان وللإيمان تحيا.. وبه تتقوى.. وبسلطانه تقهر سلاطين المال والجاه والسلطان..

الموت و الميلاد

وتأخذ –بعد سلسلة طويله من المضايقات والمحاكمات والإستجوابات– في مراجعة نفسك، وتقييم أعمالك في تأمل ذاتي هادىء واستقرار فكري عميق وتتساءل: ماذا استطعت –يا سعيد– أن تقدم "للإيمان" المضطهد، وللإسلام المهجور وأنت تركب سفينة السياسية، وتخوض بها بحاراً من الأهواء العاصفة، والآراء الصاخبة، وتواجه خصوماً لايتقيدون –في خصوماتهم– بالمبادىء الأخلاقية ولا يبالون من أجل الإنتصار عليك أي سلاح يشهرون في وجهك، ولا أية وسيلة – مهما كان حظها من الخسة والدناءة – يتوسلون بها لمحاربتك والقضاء عليك؟ وماذا أفاد الإيمان المهدد بالزوال من وقوفك في صف المعارضة، ومن شنّك الهجوم الغاضب على السلطة الحاكمة من فوق منابر الخطابة وعلى صفحات الصحف؟.

إن هذا الأسلوب في الجهاد لن ينفع في تنكيس أعلام الكفر، أو دحر قوات الطغيان، هو سيعود –في النهاية– بالضرر الكبير على الحركة الإيمانية التي تريد إحاطتها بالأجواء الهادئة التي يمكنها فيها أن تنمو وتزدهر.. فقضية الإيمان الكبرى التي قد كرّست لها وجودك، وأوقفتَ عليها حياتك، هي قضية القلب الإنساني وتعميق صلته بمنابع النور الصافية الفائضة عن الله سبحانه وتعالى، لأن جفاف القلب من هذه الأنوار وانقطاعه عن هذه الينابيع، هو سبب الشقاء الذي تعاني منه البشرية، وهو أيضاً سبب ما يعانيه الشعب التركي من بلايا ورزايا ومِحَن متمثلة بالسلطة الحاكمة المجاهرة

بعدائها للإسلام.

فالعمل السياسي في غير ميدان القلب الإنساني -لبناء الإيمان بناءً محكماً يستعصي على كل ما تفرضه السلطة من أنظمة الكفر وقوانينه- جهدٌ ضائع وعمل لا طائل وراءه، وانشغال -بحسن نية- عن القضية المركزية والأساسية يتمناه الخصوم، ويفرح به الأعداء.

ها هي لحظة الإنعطاف في حياتك تقترب.. إنني أتسمَّع آثار أقدام إنقلاب فكري تذرع رأسك جيئة وذهوباً.. وأصغي لصوت هدير زلزلة تخضّ كيانك كله، وتهزّ جذور تفكيرك..

ها أنت ذا تطلع -بعد هذه التجارب المريرة والأحداث الخطيرة- إنساناً جديداً، معافى في قواك الفكرية والروحية وبمفاهيم جديدة في العمل "الإيماني" وكيف يجب أن يكون.. وبكل قوة ومن دون تردد تمتشق سيفَ التجديد وتنقضّ به على الجزء العتيق من نفسك لترديه قتيلاً..

وتهمس لنفسك: قمْ يا سعيد.. احفر في زاوية من زوايا نفسك الخبيئة قبراً.. ووارِ به "سعيداً القديم"، ثم انهض للإحتفال بمولد "سعيد الجديد".. "فسعيد الجديد" هو رجل المرحلة الحاسمة والخطيرة من مراحل الجهاد في سبيل الإيمان والإسلام.. وليكن شعار هذه المرحلة منذُ اليوم: "اعوذ باللّه من الشيطان والسياسة".

ولكن أية سياسة هذه التي استعذتَ باللّه منها؟... ذلك ما سنراه في الفصل الآتي..

الفصل الثاني

عين كونية

اِن انساناً مثلك -أيها الأستاذ الجليل- يعانقُ الوجود بمحبة، ويحتضن الكون بودّ، ويضم الحياة الى صدره بشوق، ويرقى هائماً في جلال الله وجماله، مسبحاً بحمده وسلطانه، متعرفاً الى صفات كماله في السعَة والإحاطة والعلم والأزل والأبد.. لابدّ وأن هذه المعرفة القدسية -التي تسمو على كل معارف البشر- اكسبت نظرتك الى شؤون الحياة والمجتمع سَعَة وشمولاً وامتداداً وعمقاً، ومنحتك عيناً كونية تبصر بها جواهر الأمور، وحقائق الاشياء، وسمعاً وجودياً تسمع به نواح البشرية المعذبة وآهات الانسان الظامىء الى قطرات نور الايمان، ووهبتك حِسّاً مرهفاً ووعياً ذكياً قادراً على النفاذ الى قلب الانسان وعقله ووجدانه لتشخيص دائه ووصف ما يصلح له من دواء وعلاج.. فلا غروَ -وهذا شأنك، وذاك شمول نظرتك، وتلك سعة فهمك- أن تنصب اهتماماتك الفكرية ومشاغلك الذهنية -في سعيد الجديد- على تناول كليات الانسان -دون جزئياته-

بالدراسة والتحليل للبحث عن الوسائل الكفيلة الناجعة بحل العقد النفسية والفكرية والروحية التي يعاني منها انسان العصر الحائر المعذب الفزع..

فعندك إن الإهتمام بالجانب الجواني من الانسان، ومحاولة بناء ذاته من الداخل وتحصين ضميره بالفكر الإيماني الأصيل، هو حجر الزاوية في سياستك الجديدة التي اَمنت بها واقنعت بجدواها.

ولما كان "الاسلام" يهدف في كل ما جاء به من مبادىء وتعاليم وأفكار وعبادات الى سعادة الانسان في حياتيه الدنيوية والآخروية معاً، ويسعى لبناء المجتمع "الايماني" السليم الذي ينطلق أفراده من قاعدة "الايمان" العظيمة فيما يمارسونه من شؤون حياتهم الاجتماعية والسياسية لذا فقد أصبح هدف تخطيطك السياسي والفكري الجديد هو الانسان نفسه قبل السلطة، هذا الانسان الذي تبدأ به ومنه عملية التغيير الكبرى في بنى المجتمع السياسية والفكرية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(سورة الرعد؛ 11).

وهل السياسات -والجادّة منها بوجه خاص- إلا مواقف عقائدية يتخذها الفرد أو الجماعة مما يحيط بهما من شؤون فكرية واجتماعية وسياسية تعكس "عقيدة" رجال الحكم في أي بلد من بلدان العالم؟.. وهل الإسلام بكلياته وأصوله اِلا موقف؟ فالمسلم اِذن هو سياسي بالفطرة شاء ذلك أم أبى. فرحلة المسلم السياسية تبدأ منذ اللحظة الأولى التي ينطق فيها بكلمة التوحيد: "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله" . ويعي أبعاد هذه الكلمة وما تفرضه عليه من التزامات وواجبات.

فالتوحيد نفسه -الذي يقوم عليه الاسلام- هو موقف. وموقف رافض لكل ما يجده أمامه من "أيدولوجيات" سياسية لا تتخذ من "الايمان" أساساً في بناء هياكلها الفكرية والعقائدية، فالسياسة بالنسبة للمسلم بالمفهوم الآنف الذكر - تغدو كالهواء الذي يتنفسه في كل لحظة من لحظات عمره، لأنه ملزم - بحكم عقيدته - أن يتخذ "المواقف" مما يواجهه ويتحداه وهو يمارسها عملياً حتى في أخص شؤونه التعبدية.

اذن فأيّ سياسة هي التي استعذت بالله منها، وأشحت عنها وطويت صفحتها الى الأبد مع تلك الصفحة من حياتك التي واريتها التراب وأهلت فوقها كثبان النسيان؟ انها - بالتأكيد - تلك السياسة التقليدية اللاأخلاقية التي تمارسها الأحزاب والمنظمات المتصارعة ذات الأهداف الهابطة المحدودة والتي لا يهمها "الانسان" الا بالقدر الذي يحقق أهدافها ويوصلها الى غاياتها في الإطاحة بالحاكمين من فوق كراسي الحكم، والتربع عليها من بعدهم، دون الإلتفات الى ضمير الإنسان ووجدانه وما يمكن أن يربحه في إغناء هذا الضمير والوجدان من التغيير في وجوه الحاكمين.

فالمسألة اذن في تقديرك - أيها الاستاذ الحكيم - أعظم خطراً وأشد هولاً من أن تعالج بأمثال هذه السياسات الضيقة المحدودة الأهداف والغايات.

فهناك غزو حضاري غربي، مادي في جذوره وأصوله يتهدد العالم الإسلامي كله، ويكاد يطبق على خِنَاقِهِ، والذي كانت "تركيا" أولى ضحاياه، فلا يمكن دفع هذا الغزو او ايقاف زحفه الا بانبعاث ايماني جديد

يفجر طاقات شعوب هذا العالم الروحية، ويسلحها بالقوى النفسية والفكرية القادرة على مواجهة ثَوْرَة هذا الطوفان الرهيب الذي يقبض الغرب على ناصيته، ويمسك بزمامه، ويسخره في خدمة مذاهبه الفكرية وأغراضه السياسية والإقتصادية والعسكرية في الغالبية العظمى من بلدان هذا الوطن الاسلامي الكبير. في وقت باتت فيه الساحة الاسلامية الفسيحة مقفزة من الروح الاسلامي المتماسك، والقادر على قبول التحديات ومنازلة "الايدولوجيات" وإحتواء ما يمكن احتواؤه منها مما ينسجم مع أصوله وقواعده الايمانية العامة، كما كان شأنه -في عصور حيويته وعافيته- مع كافة الحضارات التي عاصرها وجاورها عَبَر تاريخه الحافل الطويل.

فأمام هذه القوى المادية العمياء المفزعة المنطلقة من عقالها والمتحررة من قيودها قد فجرتها في قلب "أوروبا" شرارات من لهيب الغضب الإنساني ضد جهالة التعصب الكنسي، وظلمات البابوية المعادية للفكر العلمي الناهض المتوثب.

أمام هذه القوى الكاسحة كان لا بدّ من رجل مثلك، يخوض غمار هذا الهادر الإعصاري ليبين للمفتونين من المسلمين وللعالم كله - بصوت المفكر الهادىء الرزين وليس بصوت السياسي الغاضب المتشنج - ألاّ تناقضَ - في الأصل - بين حقيقة ثابتة من حقائق العلم وبين حقيقة أخرى من حقائق الايمان -رغم اختلاف المنهج في كليهما- لأن المعارف الايمانية الغيبية، والمعارف العقلية العلمية، تنبع كلاهما من منبع واحد وتفيضان عن مصدر واحد، هو علم الله الأزلي الأبدي الواسع الشامل المحيط، والذي شاءت حكمته -جلّ جلاله- أن ينزل منه بقدر معلوم

ضياءً للوجدان ونوراً للعقل، وفي نورهما معاً -الوجدان والعقل- تتجلّى الحقيقة منيرة وضاءةً، وتسطع شمسها متوجهة بالحق والصدق لتنير للانسان سبيل الهداية والرشاد. وباحتجاب واحد من النورين، تظلم النفس وتعشو البصيرة ويقع الخلل المعيب في ذات الانسان مسبباً له التعاسة والشقاء وما يزهده بالعيش و يكرّه له الحياة.

وقد غدت هذه الفكرة - فيما بعد - احدى أفكارك الرئيسية التي أدرت حولها جملة من كتاباتك في رسائل النور، فقد جاء في احداهما قولك:

"ضياء الوجدان العلوم الدينية، ونور العقل العلومُ الكونية، وبأمتزاجهما تنجلي الحقيقة، وعند افتراقهما يتولد التعصّبُ في الأول والشك والشبهة في الثاني".

البريد السرمدي

حين تفور مراجل النفوس الكبيرة بأسرار القلب الإنساني الموصول بمنابع الحق، وحين تتضرم أشواق الروح الى ذلك العالم الإيماني الجديد الذي حلمت به منذ زمن بعيد، وعندما يحس رجال الروح العظام بأذهانهم وهي تتفجّر بشرارات من وهج الروح، وتتهلب ببوارق من رعود الفكر، ويبلغون في معاناتهم قمة التوتر الروحي، ويرقون في تجربتهم حتى النقطة التي تتوضح عندها رؤاهم الروحية، وتنفذ من خلالها بصيرتهم الى مشارف المستقبل المشرق بالنصر الروحي الكبير..

هنا عند النقطة بالذات – وقد توضحت الرؤية وانزاحت الحجب واستنار السبيل– تغشى هؤلاء الأفذاذ قشعريرية روحية لاهبة تشعل النار في قناديل القلب، وتفجر شموساً مشعة وصحواً ضاحياً في جواب النفس وأرجاء الوجدان، فاذا بهم يبصرون الأعمق والأعمّ والاشمل، ويدركون الأجمل والاعظم والاروع من أمور الفرد والمجتمع والحياة.. أي يبصرون ما لا يبصره الناس، ويرون ما لا يرونه.. وبين البصيرة المنفتحة والبصيرة العمياء، وبين الادراك العميق والادارك السطحي، وبين بحار المعرفة الغزيرة الثرة، وبين سواقيها وجداولها، تقوم الحواجز وترتفع السدود، وتنجم بين هؤلاء العمالقة، وبين مجتمعاتهم فواصل زمنية من عدم الفهم الموقت تباعد بينهما، وتنأى ببعضها عن البعض الآخر.

وبسبب من هذا البعد والجفاء تفيض أحزانهم وتمتليء قلوبهم بأسى الغربة وآلام الغرباء، وتتملكهم رغبة ملحة بالعزلة والانسلال بهدوء من بين صفوف مجتمعاتهم ليلقوا بأنفسهم المضناة في أحضان الصمت، ويهدهدوا أفكارهم المسهدة في مهاد السكينة والهدوء، ويبعدوا – لبعض الوقت– عن صخب وضجيج المجتمعات الى الصحارى والقفار، والكهوف والمغاور، وقنن الجبال وضفاف الانهار، حيث الطبيعة المتألقة الطاهرة النقية بصمتها وجلالها لتضمهم الى صدرها ضمّة الأم الرؤوم، ولتمسح جراحات غربتهم وتكفكف دموع أشجانهم وتؤنس وحشتهم، ثم لتأخذ بأيديهم وتدخل بهم من أوسع أبوابها الى رحاب الحضرة القدسية حيث يقعون سجداً على أعتاب ملك الملوك، أنيس المتوحدين، ورفيق المتفردين ومبدد وحشة المغتربين.. ومن هناك – من هذا القرب الإلهي– يبدأون من جديد استعدادهم للإبحار من شاطيء السكينة وضفاف الصمت الى عالم الانسان، وأغوار النفس البشرية، للكشف عن مجاهلها، والتنقيب عن جواهرها ولآلئها الخبيئة الدفينة

وهكذا أنت ايضا –يا رجل الروح العظيم– تعاني المعاناة نفسها، وتصطلي بنيران التجربة ذاتها، فتشعر — شعور الغرباء – أنك بحاجة الى منتجع روحي يعيد إليك شتات نفسك الممزقة ألما ويرد عليك ذَوبَ قلبك الذي يشخب دماً، ويهبك من السكينة ما تستطيع معها أن تتلمس مواطيء قدميك، ومواقع سيرك في طريق كفاحك العذب من أجل الايمان الذي كثر خصومه، وإشتدت ضراوة أعدائه، فتعتزم هجر "أنقرة" العاصمة الجديدة في ربيع سنة 1923م وهي تضج وتصيح بأصوات الباطل المنكرة

وتنوء بالفَسَقَة من عصبة الأوغاد الذين يحيطون بكبيرهم إحاطة السوار بالمعصم، تظللهم تلك السحابة السوداء الكالحة من الحقد الدفين على الإسلام والإيمان، نافثين من أرواحهم الكابية ذلك الليل الأوروبي الفاحش الذي عرفوه ومارسوه في مواخير "أوروبا" المتخلعة وحاناتها، زاهين بقبعاتهم زَهوَ الديكة بأعرافها، ظانين هذه القبعات يمكن أن تتستر على الرؤوس الجوفاءِ المنخورة التي يحملونها فوق مناكبهم..

وتتوجه الى مدينة "وان" حاملاً في ضميرك سرّ آلامك المبرحة وطاويا ضلوعك عل ذلك "البريد السرمدي" الذي تريد إيصال رسائله النورانية الى كل بقعة من بقاع تركيا ومن ثمة الى كل زاوية من زوايا الأرض..

وتعتلي- يا عاشق الأعالي - جبل "أرك" المتلفع بالضباب، والغارق بالصمت، وهنك فوق سفحه تقضي أيام الصيف ولياليه في خرائب معبد مهجور، فتوغل في التأمل والتفكر، وتمضي في العبادة والتهجد والذكر، فتغمرك السكينة، تحفك الأضواء ويسربلك الصفاء ويغسلك النقاء وتتهاطل فوق روحك الأنداء، وتحسّ برحمة الهية غامرة تلف كيانك كله، وبلطف رباني يتغشى وجودك جميعه، فتأنس بهذا القرب، وينشرح صدرك وتشعر في روحك بقوى غيبية هائلة تهتف بك أن تنازل الاعداء، وتتلمس في قلبك سيفاً مرهفاً حاداً نوراني النصل يصرخ بك أن تقارع الخصوم.

وعندما يبترد الجو، وتهب الأعاصير معلنة عن قدوم طلائع الشتاء، تودع جبل "أرك" وتهبط الى المدينة لتقضي أيام الشتاء في بيت أخيك الشيخ "عبد المجيد" أو معتكفاً في جامع "نورشين" مستغرقاً في عذوبة التعبد والتهجد..

ولنستمع الى واحد من طلبتك يحدثنا عنك في فترة وجودك في "وان" في تلك الأيام يقول الطالب:

(كان يقوم لصلاة التهجد كلّ ليلة وكنت أراه وهو يصلي، فلا استطيع النوم، وعندما يراني مستقيظاً كان يقول لي:

- ما دمت مستيقظاً فتعال واشترك معي في الدعاء..

- ولكني أجهل قراءة أي دعاء..

- حسناً، سأدعو أنا وستؤمن أنت..

وكنت أغفو أحيانا أثناء الدعاء، فكان ينظر إليّ مبتسماً ويقول:

- لا بأس عليك — يا بني - لقد كنت أنا أيضاً مثلك، ولكنك ستتعود على مصارعة النوم وستصرعه).

بسالة الحكمة

وأنـت في هـذا الفـوران الروحـي العظيـم الـذي يلامـس حافـات السـماء، ويهز ضـمير الكـون، ويتعـالى ويرتفـع ويبلـغ الـذروة في العنفـوان والقـوة ويسـيل ويمتـد ويصـفو ويـروق حـتى تتجمـع عليـه القلـوب الظمـأى، وترتـاده الأرواح العطشى، فتعلّ وتنهل، ثم تعود مرتوية منتشية..

تلـك كـانت حالـك – يـا معلـم الإيمـان – يـوم يبلغـك نبـأ تلـك الثـورة المسلحة التي يعتزم بعض رؤساء العشائر في الأناضول إشعالها ضد حكومة "أنقرة" إستياء من منهجها المعادي للدين، حيث يكتب إليك بعض قادة الثورة بشأنها طالبين النصح والمشورة، ويأتي من يحاورك ويجادلك في شأنها شفاهاً مبدياً استعداداً لا حدود له، ورغبة ملحة صادقة، في أن تكون أنت نفسـك على رأس هـذه الثورة تقودهـا وتوجههـا، فـإن تعـذر عليـك ذلـك – لأي سبب مـن الأسـباب – فلا أقـل مـن أن تمنحهـم موافقتـك وتبـدي لهـم رضالك..

ولكنك بكل هدوء تعلن لهؤلاء القادة عن رفضك لهذا العرض، وتنصح لهم بالعدول عن الفكرة نهائياً.. ويثير هذا الموقف الرافض الدهشة والعجب عنـد قـادة الثـورة، ويحَـارُ فيـه النـاس، ويـذهل لـه التأريـخ.. لأن أي إنسـان يعـادي حكومـة "انقـرة" ويرفـع لـواء المعارضـة آنـذاك كـان ينبغـي أن يصـفق رضـىً وطربـاً لأيـة بـادرة معارضـة أو مقاومـة مهمـا كـان نوعهـا فضـلاً عـن أن تكون ثورة مسلحة...

أما أنت فقد كنت تدرك – بنفاذ بصيرتك وحكمتك – أن مَنْ وراء "الدجال السفيه" من قوي رهيبة في الداخل والخارج، لن يتركوا هذا الابن المدلل يلاقي مصرعه في عمل إسلامي مسلح يهدم كل ما بنوه عليه من أحلام وآمال، لذا ركوب هذا المركب الخطر – قبل الأوان – سيغرق البلاد والعباد في بحران من الدماء دون جدوى، وهو بالتالي سيضع – بكل حماقة – في يد الرجل كافة المبررات لإرتكاب المزيد من المذابح والتصفيات الجسدية في صفوف المسلمين كما وقع فعلاً.

إذن أهو الخوف والإشفاق هو الذي أملى عليك اتخاذ هذا الموقف الرافض الغريب من هذه الثورة؟.

أهو الدم في عروقك هتف بك فزعاً من أن يتحول الى نجيع على أرض المعركة؟

أهي الروح قد أجفلت مرتعبة، فصرخت تناشدك السلام؟

أم هو القلب الواجف المرعوب، قد أملى عليك موقف الأمن والأمان؟

لا هذا ولا ذاك.. فحتى أعداؤك أنفسهم يشهدون – والفضل ما شهدت به الأعداء – أنّ في صدرك قلباً باسلاً، يخاف الخوف نفسه من الاقتراب منه، فضلا عن الحلول فيه، وأن لك روحاً هي أشجع من الشجاعة نفسها، وأن في عروقك دماً لو شئت أن تقطره قطرة قطرة في سبيل الله، لصرخ بك هاتفاً: ها أنذا فاسفح مني ما تريد.

ولكن الشجاعة حين تنفلت متحررة من قيود العقل والحكمة، تنقلب الى إعصار مدمر لا يدمر إلاّ أهله، فالشجاع الشجاع هو الذي يستطيع

ضبط نفسه وقت انفلات الضوابط كلها، والتحكم في كوابح روحه، فلا يدع الأسد في قلبه والنسر في روحه ينفلتان وراء ذلك الجَيَشان الإنفعالي المتمرد على كل قوانين الحكمة والعقل والمنطق..

البركان الصامت

إلى أين أنتم ماضون صُعُداً في شعاب الجبل أيها الرجال المدججون بالسلاح...؟!

ماذا تبغون...؟ ومَنْ ترومون..؟

ألا تتركون هذا النسر المتوحد المتفرد ينعم بعوالمه المفعمة بالألق الإيماني والصحو القرآني...؟ ألا يؤلمكم تعكير صفو هذه الهدأة المباركة.. وهو يعصر نفسه فيها، وتعصر هي فيه أنداء اللطف الإلهي الأنوس..؟

ماذا يريد سادة "أنقرة"؟ أيرعبهم صمت البراكين..؟! ويعذبهم ثبات الزلازل؟! وتنطلق الوحوش الضارية — بعد فشل الثورة — تلغ في دماء المسلمين، وتلعق جراحاتهم النازفة، وتنتشي سكرى بما تسمعه من تلك الغرغرات الحزينة المختنقة والمنبعثة من الأجساد المعلقة على أعواد المشانق.

وها هو "الدجال السفيه" يغتنم فرصة هبوب هذه الريح الحمراء المواتية لينشر أشرعة سفينته الدامية، ويبحر بها فوق لجج من دماء المسلمين إلى جزيرة "لا دينيته" اللعينة. ولكنه رغم ذلك كله لا ينعم بالسلام ولا يشعر بالأمان بل يظل في دوامة مخيفة من عذاب الفزع الذي يأكل قلبه، وينخر روحه، ويسوّد عيشه.

فهو على يقين من أن "سعيد النورسي" في وكره على جبل "أرك" بركان صامت تكاد حممه ونيرانه تندلع وتسيل من غير صخب ولا ضوضاء، وطاقة إسلامية كبرى لا يعلم متى ستتفجر وكيف ستنطلق؟ لذا فلا أمان له

ولا سلام مادام هذا الرجل بعيداً عن أنظار بوليسه ورقابة شرطته وجواسيسه، ويلقى القبض عليك - ياأسد الإيمان - وتأتي الأوامر بتسفيرك إلى "استانبول" تحت حراسة مشددة، وتمضي في رحلتك عبر -أرضروم - طربزون- في شتاء بادر قارس البرودة، حيث كانت الثلوج تغطي الجبال، وتغمر الطرق، وتملأ الوديان. وكانت هذه المروج الثلجية الممتدة على أمداء البصر تشيع في نفسك لحظات عميقة من السكينة الجذلى الحالمة بعالم جميل طاهر كطهر هذا الثلج، نقي من الأحقاد والضغائن كنقائه، أبيض القلب والوجدان كبياضه...

وكانت أنفاس إيمانك الحارة تلفعك بالدفء وتشيع فيك الغبطة والرضى... فلم تعد تبالي -في نشوة استسلامك العذب لمشيئة الله وإرادته- وحشية الإنسان، أو سوء الأحوال الجوية، لان الروح المتعلق بالله المتشبث بأمراس رحمته وألطافه، لن تطاله أو ترقى إليه عذابات الأرض وقساوات بني الإنسان مهما اشتدت وعظمت.

وتمكث في "إستانبول" عشرين يوما تحت رقابة حكومية صارمة، ثم تصدر الأوامر مجددا بنقلك إلى مدينة "بوردور" وتحط هناك عصا ترحالك، وتمضي فيما أنت فيه من عبادة وتهجد وتأمل، وكأن شيئا لم يحدث، وكأنك مازلت في عزلتك على جبل "أرك" في "وان" لم تغادره بعد... لأنه لم تعد أمثال هذه الصغائر "النفي والتشريد والسجن والمراقبة والمضايقة" إلى آخر ما في جعبة الحكام الطغاة من أفانين التعذيب لترويض شجاعة الإنسان وسحق البسالة في الروح الرافض المتمرد على طغيان الطغاة وتجبرهم على بني الإنسان، أقول:

لم تعد أمثال هذه الممارسات معك تثير اهتمامك، أو تشغل بالك، أو تحول دونك ودون المضي في طريق تحلية النفس بالمعاني الكبرى التي تفيض من اسمه تعالى: "الباقي"، وكل ما عدا ذلك مما يعترض طريقك في هذا الإتجاه، فهي أمور متعلقة "بالفناء"، والالتفات إليها، والانشغال بها عبث لا يغني فقر الإنسان ولا يشبع جوعه إلى الخلود والبقاء. وقد قيدت هذه المعنى بمقولتك: "الإنشغال بالفناء فناء، والانشغال بالبقاء بقاء".

فوالله لقد أصبت المحز، ووقعت على القول الفصل في هموم الإنسان العليا ومشاغله الذهنية والوجدانية.. وهكذا يظل فكرك ساميا سامقا محلقا في سماء المعاني القرآنية والأفكار الإيمانية رغم كل الأجواء العدوانية المشحونة بالكراهية والحقد التي أحاطك بها الخصوم، فيجري قلمك الملتهب ليسجل إحدى رسائلك الهامة "الباب الأول للنور" وهي دروس قيمة في معاني الإيمان، مستقاة من ينبوع القرآن الكريم، وسرعان ما تتلقفها الأيدي وينتشر تداولها بين طلابك ومحبيك في كل مكان من بلاد الأناضول.

الله أكبر

كنتُ في مدينة "اكردير بازار" عندما استدعيت إلى مركز البلدة في صباح أحد الأيام، ذهبت إلى هناك حيث كان "القائمقام" وآمر "الجندرمة" مع أعضاء هيئة البلدية، وبينهم رجل وقور مهيب يبدو في الأربعين من عمره، مرتدياً جبة، ويعتمُّ بعمامة بيضاء في رأسه. خاطبني آمر الجندرمة قائلاً:

إسمع يابني.. عليك أن تأخذ شيخنا هذا –مشيرا إلى "بديع الزمان سعيد النورسي" والذي عرفت اسمه فيما بعد– إلى "بارلا"... وأود أن أعلمك بأنك تقوم بمهمة غاية في الخطورة.. وعندما تسلمه إلى "المخفر" هناك، دعهم يوقعوا على الأوراق الرسمية التي تؤيد استلامهم للشيخ.. فأجبته: حسناً يا سيدي.. سأنفذ كل ما قلته لي. وخرج الشيخ في صحبتي، وقد كنت أحس بالحرج والحياء منه.. وفي الطريق قلت له معتذرا:

يا شيخنا أنت بمقام والدي.. وإني غير مرتاح من هذه المهمة ولكني أؤديها بحكم وظيفتي، فأرجو أن لا تستاء مني.

هذا بعض ما كتبه السيد "شوكت ديراي" الجندي المكلف بنقل الشيخ في دفتر مذكراته..

ويستمر السيد شوكت في وصف رحلتهم إلى "بارلا" بأحد القوارب الشراعية فيقول:

"كان الجو بارداً، إذ كان الفصل شتاءً، وكانت مياه البحيرة –التي كان علينا أن نقطعها عبر الرحلة– متجمدة هنا وهناك، وكان أحد ربابنة القارب واقفاً في المقدمة يكسر الجليد بعصا طويلة في يده، ويفتح بذلك طريقاً سارية للقارب الشراعي... وبدا الشيخ الوقور هادئاً تحيط بوجهه هالة هادئة من الإشراق وابتسامة وادعة ودودة ترتسم على شفتيه... ثم يضع يده على بعض متاعه ويخرجها مليئة بالزبيب والحلوى ويقوم بتوزيعها علينا، وكنت أرقبه متفرسا فيه، فلم أر طيلة حياتي –في أمثال هذه المهمات– إنسانا بهدوئه وسكينته سارحا في التأمل والتفكير ناقلا نظره بين مياه البحيرة الملساء، وبين القمم الشامخة الوعرة للجبال التي كانت تحيط بنا عبر رحلتنا المائية هذه وعندما أدركت صلاة العصر، أراد أن يصلي واقفا، فوجهنا القارب تجاه القبلة، وفجأة سمعت صوتا يقول: "الله أكبر" لم أكن قد سمعت في حياتي كلها تكبيرة بهذه الرهبة والخشوع، أحسست معها أن كل شيء بنا ومعنا ومن حولنا قد اهتز ومسته قشعريرة خاشعة لهذه التكبيرة الفريدة، وأن الشعر في إهابنا وفي قحاف رؤوسنا قد كشّ منتصباً لتلك الصعقة الإيمانية التي ضربت جما جمنا، والمنبعثة من بروق روح هذا الشيخ الجليل...

وكنت أشعر أنني أمام رجل فريد لا يشبه في حركاته وأطواره ما عرفت من أحوال الشيوخ من قبل...

كنا نحاول جاهدين أن نبقي القارب باتجاه القبلة، وعندما أنهى الشيخ صلاته التفت إلينا قائلا:

- شكرا لكم يا إخواني.. لقد أتعبتكم..

كان متواضعا مهيبا في تواضعه، عطوفا ودودا يغمر نفوسنا بلطفه وأنسه ووداعته ولكننا مع ذلك كنا نحس بهالة من المهابة تشعرنا إزاءه بكل الإجلال والاحترام..".

بارلا تصرخ

لكل شيء في هذه الحياة التي تحيط بنا نوع من الحياة يقوم كيانه ووجوده بها، وله نوع من الروح -إن صح التعبير- فيه قابلية الإحساس بالأشياء والتأثر بها، والتأثير فيها، مهما بدا هذا الشئ في ظاهره صلباً جامداً مواتاً.

والأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- والتابعون لهم من المؤمنين الأطهار والصالحين الأبرار، قد عرفوا هذه الحقيقة وأحسّوا بها، وتيقنتها أنفسهم منذ أزمان سحيقة في القدم.. فلا شئ عندهم إلاّ وبينه وبينهم عاطفة حب، وصلة مودة، يحبونه ويحبهم، ويصلونه ويصلهم.. فقد سبّح "الحصى" في كفّه **ق** وأنّ الجذع الذي كان يخطب الناس منه حنيناً وشوقاً إليه.. وقال في أُحُد: "هذا جبل يحبنا ونحبه".

فإلى أين أنتم آخذون – عنوة هذا الرجل يا جند السلطة"..؟ وإلى أيّ منفىً قصي تنفونه وتنأون به يا عساكر سادة "أنقرة"؟ أتريدون استعداء الأمكنة والأزمنة عليه؟!

فليس ذلك —والله– بمقدوركم.. فبينه وبينها من التعارف والتآلف ما لا تفهمون ولا تدركون.. أتأملون ان تغروا به -في منفاه- وحوش الوحدة والغربة وهو قد راضها -من قبل- وعقد بينه وبينها من أواصر المحبة والمودة ما لا يمكن أنْ يخطر لكم على بال؟ وتريدون من "بارلا" منفاه الجديد أن

تنضم إلى صفكم تجافيه وتنأى بجانبها عنه، وتبدي له من الصدود والهجران ما يقضّ مضجعه ويؤرق باله، فلا يطيب له فيها مقام أو يسعد به مجلس؟

ولكن (بارلا) سرعان ما تخيب ظنكم وتبدد آمالكم، وتقلب حساباتكم الماكرة رأسا على عقب.. وهاهي البلدة الوادعة توطئ للضيف الكريم أكنافها وتفتح له قلبها ويهتز له روحها، وإذا بجبالها وأشجارها وينابيعها يظللها عيد روحي كبير ومهرجان إيماني عظيم، وهي ترى بعين بصيرتها الخضرة الماتعة في ربيع قلبك -أيها الرجل الصالح- وتطلع على ذلك الصفاء القرآني المتألق في سماء روحك فتهتز أريحيتها وتمحضك خالص ودها، ومرهف شعورها، وتحط رحالك في "دارة" صغيرة تتكئ بدلال الطفولة البريئة على صدر الطبيعة الدفاق بلبن اللطف الوديع..

فهي تغفو -إذا غَفَتْ- عندما يجنها الليل، وتعتنقها أخيلة الظلام الكوني على صوت الخرير الشجي والهَسْهَسة الناعمة الوادعة لمياه نبع صغير يجري قبالتها ويكاد -من قربه- يغسل قدميها بأمواهه صباح مساء..

وتستيقظ -إذا استيقظت- عندما يتنفس الفجر الوردي الندي على أعذب الألحان والتغاريد التي تطلقها في لوعة الحنين المشتاق العشرات من الأطيار من فوق شجرة "الدلب" العتيقة السامقة المتشابكة الأفنان والتي تظل هذه "الدارة" في حنوّ ومحبة..

وبذوقك الشاعري المتأنق الرفيع. وبحبك المولّه بجمال الطبيعة.. وبكل تعلق روحك بالسموّ والأعالي.. تطلب من نجار القرية أن يعلو جذع الشجرة، وأن ينجد لك فوق جذعها وبين أغصانها غرفة خشبية، تطلع

إليها على درج خشبي وتقضي في هذا العش الجميل معظم أوقاتك في فصلي الربيع والصيف متعبداً ومتأملاً ومتفكراً.

كان نومك -إذا نمت- سناتٍ وغفوات.. فأنت لا تعرف نوم المتعطلين والخليين الثقيل.. وكيف يطيق النوم مَنْ أشرقت في أعماق روحه صحوة الإيمان الكبرى إلاّ إذا غلبه النوم على جفنيه مغالبةً، وحط الكرى على معاقد عينيه خلسةً بين الفينة والفينة..

وكان طعامك ملاعق قليلة من حساء مع كسرات من خبز يتردد به عليك أحد جيرانك الأدنيين.. وتأبى إلاّ أن تنقده ثمنه، لأنك قد آليت على نفسك -من قبل- ألا تقبل من أحدٍ كائناً من كان أعطيةً دون مقابل..

ويثير إعجاب أهل "بارلا" ما في حياتك الزاهدة من معنى التأبي على أي نوع من أنواع القيود البشرية، وما في سلوكك العزوف من رغبة الإكتفاء من الحياة بالقليل القليل الذي يقيم الأود ويحفظ عليك الحياة، ولكنك مقابل ذلك تريد إغناء الحياة، وإثراء القلب والروح بالمعارف الإيمانية التي ترقى بالإنسان نحو الطهر والقداسة والجمال...

ويتساءل الناس مشفقين.. ألا ينام هذا الشيخ المتعب المريض..؟ ومتى ينام إذا نام؟ ومتى يصحو؟ فقلّما يمّر واحد منهم في ذهابه أو أيابه من تحت الشجرة في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار إلاّ ويفجؤه من "عليّة الشيخ" همهمة أو حركة تنبئ عن يقظته وتشير إلى صحوته..

ترى ماذا يفعل هذا الإنسان الغريب الأطوار تحت جنح الظلام؟! ولماذا يطوي الليل ساهراً ؟ وأي سرٍ وراء ذلك؟

وكيف ينام مَنْ تدور أكوان القرآن العظيمة في فلك قلبه؟ وكيف يهجع مَنْ تزدحم عوالم سوره وآياته وكلماتهِ في فضاء ذاته..؟ وكيف يداعبُ الوسن عين مَنْ يصبح ويمسي القرآن روح حياته وماءَ وجوده؟!

فلو اعتصر فؤاده، وحُلِبَتْ روحه لما إنسكب منهما غير أدب القرآن وحكمته وخُلُقِه ووهج نورِه.

فهو -في هذه الليالي الهادئة الجذلى- يعتصر قلبه، ويحلب روحه في قوارير من نورٍ ويقدّمها للعطاش من إخوانه البشر، فما يكاد يرتشف منها الإنسان رشفة حتى تتحول في دمه إلى سياج نوراني لا تقوى على أختراقه أوهام الكفر ولا ضلالات الملحدين، تلك هي "رسائل النور" التي عكف على كتابتها أو إملائها على تلامذته مدّة الأعوام الثمانية والنصف التي قضاها في "بارلا".. هذه البلدة التي يمكن أن نَعُدّها بحقٍ المدرسة النورية الأولى التي شعّ منها نور الرسائل إلى كل طرف من أطراف "تركيا".. ولم يكن أهل "بارلا" المتوجسون خيفة يلتقون "الرجل المنفي الغريب" إلاّ وهو سائر في طريقه إلى منعزله فوق جبل "أكردير" في الأصباح، أو وهو هابط منه إلى "دارته" في الأماسي.. ولكنهم -مع ذلك- كانوا يشعرون شعورا غامضا بالراحة والطمأنينة منذ حلّ هذا الرجل بين ظهرانيهم، ويلمسون إنشراح صدورهم للقياه، ولهفة نفوسهم للتحدث معه، والاستماع منه، وأنهم لولا رقابة المخبرين وتجسس المتجسسين لهرعوا إليه وأخذوه بالأحضان، وأذابوا أنفسهم في سهوم عينيه العميق المستقر الحاد، ولنهلوا من منهله وشربوا من مشربه.. ولكن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على خوض مثل هذه

المغامرة المحفوفة بالمخاطر، واقتحام ذلك الطوق البغيض المضروب حوله من قبل عصبة من المخبرين ورجال الشرطة السريين..

و"بارلا" تصرخ بأهلها.. هيا تقدموا يا أبنائي.. اكسروا الطوق.. واخترقوا الحصار.. ومدوا الجسور بينكم وبينه.. أليس في صدر رجل منكم قلب باسل يمشي إليه، فيفتح بذلك البوابات والمسارب لحركة "الإيمان" كي تأخذ طريقها إلى صحارى القلوب والأرواح في أرجاء "تركيا" المهيضة الجناح، والتي يلتهم روحها الحزين ذلك الداء السرطاني الرهيب الذي زرعه فيه أعداء الإيمان..

ويتقدم "سليمان" ابن "بارلا" البار، فيكسر الطوق ويخترق الحصار، ويقترب من الشيخ في ساعة ضيق ويدخل معه "دارته" ويشعل سراج غرفته، ويصبح بعد ذلك من خُلّص تلامذته، وإليكم القصة كما حدثت:

في يوم صيفي جميل مشرق، خرج "الأستاذ" من دارته متوجهاً إلى الجبل، وما أن وصل "منعزله" هناك وجلس يستريح حتى تجمعت غيوم سوداء حجبت الشمس، ونشرت الظلام في السماء. فاكفهر الجوّ، وهبّتْ عاصفة ممطرة، وانفتحت أبواب السماء كأفواه القُرب تصبّ الماء صبّاً.. كان وحيداً..

ولم يجد ما يتقي به المطر سوى أيكة التجأ إليها محتميا بأغصانها الملتفة لتحميه، بقدر ما يمكن للأغصان أن تحمي الإنسان من ماء منهمر من السماء..

ثم خفّت حدّة المطر، فانتهز الأستاذ الفرصة وقفل راجعاً إلى البلدة، وقد تبلّل من قِمّة رأسه إلى أخمص قدميه... وكان وهو يسير يخوض في الحفر والبرك التي خلفها المطر، وتغوص قدماه في الأوحال والطين، وما لبث أن تمزّق خُفّهُ

وتعذّر عليه المشي فيه، فأضطر الى أن ينزعه ويحمله بيده...

ودخل البلدة يغوص بجوربه في الماء والطين والوحل.. وهناك بالقرب من النبع –وبعد توقف المطر– كان جمع من أبناء "بارلا" مجتمعين يتبادلون الحديث عندما وقع نظرهم فجأة على هذا المنظر المؤثر، منظر العالم الجليل المهيب.. المنفي.. الوحيد.. المقاطع من الجميع.. وهو يحمل خُفّه الممزّق بيده ويمشي متعثراً في الطين بجواربه وهو يجر أذيال جبّته الملطخة بالطين وهي تقطر ماءً...

وصمتَ الجميع... وران على نفوسهم السكون... وظلّلتهم سحابه كئيبة من الأشفاق والرثاء..

وتجاذبتهم عواطف متضاربة.. عواطف إنسانية شريفة تغريهم بالإندفاع لمساعدة الرجل ومدّ يد العون له في ساعة الضيق الحرجة هذه.. ومشاعر الخوف من عيون الحكومة ومخبريها الذين يترصدون حركاتهم.. فظلّوا في مكانهم جامدين تشُلّ حركتهم الحيرة بين الإقدام والإحجام..

وفجأة يندفع من بين الجمع الذاهل "سليمان" ويصل إليه ويأخذ الخفّ منه ويغسله بماء النبع مما علق به من وحل وطين، ثم يرافقه حتى "دارته" ويصعد معه إلى غرفته، ويساعده في التحلل من ثيابه المبتلة.. ويعينه على إصلاح شأنه..

وظل السيد سليمان بعد هذه الحادثة في معية الشيخ يرعى شؤونه ويتتلمذ على يديه طيلة ثماني سنوات كاملات...

الوجود فكرة

الوجود فكرة ما في ذلك شك، وهو فكرة الغيب وعقله المسكوب في الماهيات والصور فما من ذرّة تعيش في هذا الوجود إلاّ وهي إيماءة أو آية -كما يعبر القرآن الكريم- إلى صِنو ذكي لها في هذا الفكر الغيبي المهيمن المحيط.

والقرآن الكريم يمدّنا بجملة كبيرة من القضايا الإيمانية الغيبية، إبتداء بالموت والقبر والحشر والحساب، وانتهاء بالخلود الأبدي في الجنّة أو النار، ثم يعود ويلفتُ أنظارنا في كثير من آياته وسوره إلى ما يرمز لهذه القضايا الإيمانية ويؤمي لها من ظواهر قائمة في عالم الشهادة المحسوس، ليسهل على الإنسان المتأمل التدرج المنطقي في التصور من هذا المحسوس القريب إلى ذلك المجرد الغائب، ومقايسة الغائب الغيبي على الحاضر المشهود حفاظاً على الخيال الإنساني من التبدد والضياع في متاهات من التخيل السارح بلا ضوابط أو حدود.

ولكن الإنسان لكونه "شيئياً وتصورياً" بطبيعة تكوينه، فإن عوالم "الأشياء والصور" المتداخلة المتزاحمة المحيطة به من كل جانب، والتي يعايشها في يوميات حياته كل يوم، كثيراً ما تصيبه بالدّوار والقرف، فلا يعود قادراً على الوقوف على أرضية صلبة من التأمل الهادئ، والنظر البعيد.

وقد تطفى هذه "الشيئية والصورية" وتشكل أمام فكره جداراً سميكاً معتما يصيبه بقصر نظر حاد فتعشو بصيرة روحه وتنغلق منافذ قلبه وتتعطل

قنوات فكره، فيعجز —بالتالي– عن رؤية ما وراء الأشياء والصور من أفكار ومعانٍ، هي الأساس الأصيل في كل وجود على الإطلاق.

وتلك هي –في الحقيقة– مأساة الإنسان المعاصر، وهذا هو البلاء العظيم الذي حذّرتَ منه، ونبّهتَ إليه –أيها الأستاذ– عندما كرّستَ جملة من "رسائل النور" في نقض الأساس الخاطئ، وتبديد الوهم السادر الذي تقوم عليه هذه النظرة الكليلة الحولاء.

فأنّى للإنسان اليابس المتصلب الذي لم تتعمق جذوره في نهر الحياة البرود، أنْ يمتدّ ويتسع لاستيعاب حقائق الإيمان، وإحتضان أفكاره العظيمة التي ما اعتنقها انسان إلاّ وجعلتْ منه كوناً عظيماً تتألق في سمائه شموس المعارف وتسبح في فضائه مجرّات الوعي الشامل الوسيع..؟

وأنّى للأرواح الصلبة الجاسية التي تغذوها سموم الصحارى، وتسقيها الرياح السوافي أن تتأوّد وتهتزّ وتجثو متخشعة لتعِلّ من بحار الغيب، وتنهل من معين فكره..؟

رجالٌ هذا شأنهم وتلك يبوستهم، تندلع ألسنة جهنّم في نفوسهم، وتتأجج نيران السعير في أرواحهم ليس سهلاً أن يسيغوا عذوبة الإيمان في قلوبهم، أو يطيب لهم ترشف معانيه وأفكاره في أرواحهم.

فهم قوم منكرون. تنكرهم نفوسهم، وتجفوهم أرواحهم، وتتوجع منهم الأرض التي تقلهم، وتمجّهم السماء التي تُظِلّهم، ويغلق الوجود أبواب معانيه في وجوههم، وتوصد الحياة منافذ أفكارها إزاءهم فكيف يستطيعون الفهم عن الوجود؟ وكيف يطيقون الوعي عن الحياة، وأنّى لهم أن يدركوا ما ترمز إليه من معان وأفكار؟ فلا جرم يحسّون بظلام الوحشة والغربة في هذا العالم

ولا غرو في تعمق شعورهم بالوحدة، حتى ليغدو وجودهم نفسه عبثاً ثقيلاً وحملاً تنوء به كواهلهم، ويتمنون لو تواتيهم الشجاعة يوماً ما للتخلص منه والإلقاء به بعيدا في مهاوي العدم..

أما أنت –يانزيل "بارلا"– فقد غدت الطبيعة الجميلة بأرضها ونبتها وشجرها وزهرها، شقيقة روحك وخدينة فؤادك، ورفيقة دربك، تفضي إليك بسرّها، وتكشف لك عن دخيلة أمرها وتساورك بمعانيها وأفكارها..

تلمسها –تلمس المشوق– باليد والعين والفكر والخيال، تلك اللمسات التحسسية المفعمة بالرقة والإرهاف. فتتعرف عليها في عنفوان قوتها، وعرامة سورتها، وتلحظها في هدواتها وسكناتها، وتشهد –عن كثب– دبيب الموت في أوصالها، وسريان سكينته في جوارحها إذا حل الشتاء البارد المتثلج، وترقب حركة الحياة وروحها ودفأها وهي تسري في الجسد الهامد والجثة الهاجعة، ويروعك انبعاثها العجيب من بين أكفان الجليد خلقاً سوياً موّاراً بالجمال والرواء إذا ما هبّتْ نسائم الربيع وأشرقت شمسه الدافئة الحنون..

هكذا إذن هو الموت ثم البعث والحشر... ومثل هذا يكون موت الإنسان في شتاء الدنيا وبعثه وحشره في ربيع الآخرة.. ونود –هنا– أن نسأل أولئك المنكرين لبعث الإنسان وحشره، لماذا يشذّ الإنسان وحده عن هذه السنّة الكونية المشاهدة المكرورة التي تتكرّر كل سنة أمام عيوننا وأبصارنا؟!

فهو –الإنسان– يموت ويدفن تماماً كما تدفن حبة القمح، وبذرة الباقلاء، ونواة الكرم، وفسيلة النخيل، وغصن الزيتون، وشجيرة الورد، وبيوض البعوض والذباب والنمل والفراشات، إلى ألوف المخلوقات الأخرى

وملايينها من نبات الأرض وهوامها ودوابها، ثم تبعث حيةً من جديد في الربيع التالي.. إلاّ الإنسان في ظن المنكرين والجاحدين..

ولكن لماذا هو وحده وهو أشرف مخلوقات الأرض وأسماها فكراً وشعوراً، وأعظمها إدراكا ووعياً..؟! لماذا يحرم –هو وحده– من شرف البعث ويحال بينه وبين استئناف الحياة من جديد في عالم أرحب وأنقى وأجمل من عالم الأرض هذه؟!

أَلِأَنَّ أحداً من الناس لم يشاهد أو يرَ رأي العين، من الألوف من السنين وحتى اليوم قبراً ينشق عن إنسان حي يقوم من مرقده نافضاً عنه التراب، ليبدأ استئناف الحياة من جديد.. ولكننا يمكن أن نشاهد ونرى رأي العين قبور الأرحام وهي تقذف الملايين من الأجنة الممتلئة بالحياة كل يوم بل كل ساعة..

إذن، ألا يمكن لأرحام القبور أن تفعل نفس الفعل حين يأذن الله للأرض أن تخرج أثقالها وتقذف بمكنوناتها؟

ومن قال: إن ربيع الإنسان قد أتى ليبعث من في القبور من البشر؟!

فالزمن نسبي، وهو يختلف من مكان إلى آخر، ومن مخلوق إلى آخر، فالساعة الواحدة في عمر الإنسان قد تعدل سنة كاملة وربما أكثر من عمر بعوضة أو نملة.. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج؛ 47)، والبعض من أيام الله يعدل مئة ألف سنة، وبعضها الآخر يساوي خمسين ألف سنة، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم..

وما ملايين السنين على الارض إلاّ لمحة خاطفة، ولحظة عابرة، بالقياس إلى عمر الأبدية المهول.. والفناء لهذه الأرض قدر مقدور لا مناص منه، وهو آتٍ لا ريب فيه، هذا ما تقرره الأديان جميعاً، ويؤكده اليوم علماء معتبرون في العلوم الفلكية والكونية..

وذلك – إذا ما حدث – فهو الشتاء الكوني الأعظم الذي سيلف معه الوجود الإنساني بأسره، وتلك هي قيامة الأرض التي سيعقبها ربيع الإنسان، باعث الحياة من جديد في جسد البشرية الميتة، لتقوم من مرقدها ولتحشر في صعيد واحد إلى حيث الحساب والجزاء ثم الخلود الأبدي في الجنة أو النار..

وحنيننا المتأصل في أعماقنا إلى "الخلود" مسألة تثير العجب، وتحير العقول... لماذا هذا الحنين؟ وكيف تعمقت وتأصلت جذوره في أرض وجودنا؟ وكيف جاء؟ ولماذا؟ ولماذا مثلا لا نحسّ مثل هذا الحنين إلى العدم؟ ولماذا نخاف الموت، وندفعه عن أنفسنا بقدر ما نستطيع؟

إن الحنين إلى الخلود، والتفتيش عنه، والرغبة الملحّة فيه، دليل – أيما دليل – على وجود "الخلود" مثلما يكون تفتيش الجنين النازل من بطن أمه لحظة نزوله عن لبن الأم دليلاً على وجود هذا اللبن، وكما يكون إحساسنا بالعطش دليلاً على وجود الماء..

ولأن العدم معدوم، وهو لا وجود له أصلاً، فلن نرى انسياً سوياً يتمناه أو يشتاق إليه، فهو لا يذكر – إذا ذكر - إلاّ في المناقضات العقلية، والفرضيات المنطقية التي يوردها المناطقة والفلاسفة، مقابلاً للوجود،

وتوضيحا لمعناه، كما يذكر الأسود إلى جانب الأبيض، والليل إلى جانب النهار، والقصير إلى جانب الطويل، ومثلها العدم إلى جانب الوجود..

على مثل هذه الأفكار والمعاني تدور "رسالة الحشر" التي أملاها على تلامذته في "بارلا" وقد تركت أعمق الأثر في عقول الآلاف من الشباب الذين سعدوا بقراءتها.

الممكن وغير الممكن

الإنسان هو ميدان الإيمان، وساحة جهاده، وقلبه مهبط أنواره، ووجدانه هو التربة الصالحة لغرس شجرته واستنبات أزاهيره..

فحيثما يكن الإنسان، يكن ظرف الإيمان الأعظم، وفرصته الكبرى، لكي يعمل عمله، ويحدث أثره، ويترك بصماته الواضحة على حياته.

ولكون (الإيمان) يتعامل مع الإنسان مباشرة فهو في غنى عن أية ظروف أخرى خارج الإنسان نفسه – لكي يضطلع بمهمته وينهض بأعباء رسالته – سوى صفاء القلب، وشفافية الروح، لأنهما بوابة الإيمان المشرعة إلى الإنسان – ومنفذه الذي ينفذ منه إلى عمق أعماق وجدانه.

ولكن ما هو الممكن الذي يستطيعه الإيمان؟ وما هو غير الممكن؟ وكيف يكون أمر ما في حدود استطاعة رجل الإيمان؟ ومتى يكون في حكم المحال؟

ونسارع فنقرر: إن كل شئ ممكن. ولا شئ غير ممكن في نظر الإرادة الإيمانية التي لا تعرف اليأس والقنوط، ولا ينبغي لها أن تعرفه: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف؛ 87) فالإيمان قادر على البدء من مرتبة "الصفر" في كل مرةٍ عندما تتعرض مراتبه المتقدمة الأخرى لأي نوع من أنواع الهدم والتخريب. ودائرة "المستحيلات" نفسها تتضاءل وتضيق وتنحسر أمام مدّ الإرادات الإيمانية الصلبة التي تستمد زيت محركاتها من دماء القلب المتفجرّ بالإيمان.

والذين يحمّلونَ "الزمن" مَغبّةَ انحسار الإيمان، وجفاف بعض سواقيه ومنابعه هنا وهناك، جدّ واهمين، فالعلة ليست في الزمن بقدر ما هي في أولئك المتصدّين للعمل الإيماني الذين لا يحسنون تناول "الزمن" من يد الله سبحانه وتعالى بالإحترام اللائق والإهتمام الشديد، ويكسلون عن ملاحقة تياراته الجديدة السريعة، ويتأخر فهمهم لما يقذف به إزاءهم من صنيع الجدّة والابتكار، فيتسرب هارباً من بين أيديهم، ويفوتهم –عند ذلك– معالجته بالمفاعل الإيماني العظيم ليتمّ هضمه واحتواؤه ثم صبهُ في خاتمه المطاف في بحر الإيمان الممتد بين آزال ﴿...أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ (سورة الأعراف؛ 172) وآباد: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ (سورة الحجر؛ 46) هذا الزمن الإيماني المضمّخ بأنفاس مئات الألوف من الأنبياء والأولياء والمؤمنين والصديقين والشهداء، والذي ورد في الحديث القدسي عنه: "يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار"[1] فلمحات الدهر ولحظاته مليئة مغمورة وملونة بالتجليات الإلهية المتتابعة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن؛29) والتي لا تخفى على كل ذي قلب ذكي لماحٍ، وهي في المحصلة النهائية ترفد "الإيمان" وتثرى وجوده، ولا يمكن أن تكون ضدّه أبداً.

ومعلوم أن "المؤمن" اسم كريم من أسماء الله الحسنى، منحه الله تعالى –تفضلاً وتكرماً– للخلّص من عباده فالمؤمن الحق – بما يستمده من تجليات اسمه– سيد ظرفه، وقائد وقته، والماسك بزمام زمانه فهو قادر –بقدرة اسمه تعالى– أن يعبر أمواج الزمن مهما فاضتْ وفارَتْ وعلَتْ. وأن

[1] البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الجاثية (45) 1، كتاب الأدب 101؛ مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها 1-2.

يقهر صعابه ويروض جامحات أيامه ولياليه، شاقاً طريقه إلى الإنسان في أي زمان ومكان.

حتى لو قُطِعَ لسان "المؤمن" فلم يعد قادراً على النطق، وشُلّتْ يده فلم تعد قادرة على الكتابة، لكانَ في نبضات قلبه وحدها ما يكفي لإسماع صوته، وتبليغ رسالته.. ذلك هو منطق "الإيمان" وتلك هي أساليبه ووسائله في فتح اقفال القلوب وكسر أغلال العقول.. أرأيت إلى الماء السلسبيل – رغم هدوء حركته، وصمت سريانه – إلاّ إنه مع ذلك لا تقوى السدود والقيود أن توقف زحفه، وتمنع سيرهُ، فهو إذا عاقته العوائق، وانتصبت في طريقه الموانع لا يعدم وسيلةً ومنفذاً ينفذُ منه، لينفلتَ خفيفاً رشيقاً من بين الجدر الصمّاء والصخور الصلداء، ماضياً في طريقه اللاجب مخلفاً وراءه تلك السدود والموانع تشكو ضعف حيلتها ووهن قوتها.

وقد بدأ تيار "الإيمان" المحاصر – في تركيا – يفعل الفعل نفسه، فيكسر الطوق ويحطم الحصار المضروب حوله من قبل أعدائه وخصومه، ويستقطب الشباب ويكسب الأنصار من مختلف الطبقات والأعمار، ليدخلوا إلى مدرسته أفواجاً ويتتلمذوا على يديه، ويتربوا على معانيه وأفكاره وآدابه.

ونجاح الإيمان في فك الحصار عن نفسه لا يروق الأعداء والخصوم، بل يثير حفيظتهم ويؤجج حقدهم، ويسعر نيران الغضب الجامح في نفوسهم.

ولكن هؤلاء الأعداء والخصوم لا يفهمون أسرار الإيمان، ولا يلمون بمنطقه ولا يعرفون أساليب عمله، وطرائق تقدمه فهم يخطؤن خطأً فاحشاً عندما يخضعون "الإيمان" وأهله لمعاييرهم الدنيوية، وحساباتهم الأرضية ومقاييسهم القاصرة المحدودة الضيقة، تماماً كمن يريد من المسطرة أن تقيس طول "المحيط"

وعرضه. ويطلب من الفرجال أن يرسم قطر "الكون".. ولما كان "الإيمان" أكبر وأعظم وأجل من أن تحصيه مقاييسهم –وتحسبه حساباتهم، فهم– لتغطية هذا العجز الفاضح والقصور المشين يصورون لأنفسهم ولبسطاء الناس من شعبهم مسألة تقدم الإيمان واختراقه للحواجز والسدود، وكأنه مؤامرة كبرى قد دُبِّرَتْ بليل، وخطر مهول تسنده قوى أرضية هائلة داخل الحدود وخارجها — متغافلين بطبيعة الحال عن قوة السماء التي يرتبط بها الإيمان، ويستمد منها عناصر قوته — فلا بدّ إذن — من الوقوف أمامه بحزم، وسحقه قبل استفحال أمره وتفاقم خطره...

ويؤتى بك –في كل مرة– إلى أروقة المحاكم مع ثلة من تلامذتك في العديد من مدن "تركيا" لتجيب على التهم الموجة إليك:

– أنت متهم بتأسيس جمعية سرية تتستر بالدين وغرضها تقويض الحكم والإستيلاء على السلطة بالقوة..

– أنت معادٍ لأفكار الدولة وقوانينها وتحرض الناس على تحديها..

– أنتَ.. وأنتَ... وأنتَ...

ومَنْ أنا ؟ مَنْ أنا – أيها القضاة المحترمون...؟ أحقاً تريدون محاكمتي.. أم تريدون أن تحاكموا "الإيمان" في شخصي الضعيف..؟ ومن أنا سوى الإيمان المتحرك في ذرات دمي، وجزئيات كياني..؟

تقولون: أنتَ.. وأنتَ.. وليس لي —والله– من الأمر شئ. إنه الإيمان هو الذي ينطق على لساني ويحرك جناني.. لا تخافوني.. ولكن خافوا القدر الإلهي الذي يسخرني لخدمة الإيمان.. والدفاع عن مبادئ القرآن.. وترتعد

فرائصكم مني.. ولكن – بحق أقول لكم – فلترتعبوا وتذعروا وترتجف قلوبكم هلعاً ورعباً لغضب الله الذي جعل من "سعيد النورسي" –هذا الإنسان العاجز الضعيف الماثل أمامكم– سيفاً مصلتاً على رقاب الكافرين ورؤوس الجاحدين والمنكرين..

تريدون إعدام الإيمان من الأرض..؟ وتبغون القضاء على خدامه وتلامذته..؟

حسناً اعدموا الموت نفسه إذا استطعتم.. وانفوه عن هذه الأرض.. فما دامت المقابر في كل مكان من العالم تستقبل الآلاف من الموتى كل يوم، فسيظلّ الإنسان في حاجة إلى الإيمان كحاجته إلى الهواء – لأنه هو عزاؤه الوحيد في رحلته الحزينة إلى ظلمات القبر..

تريدون مطاردة الإيمان.. وأين؟ وكيف؟.. إذن شقّوا الصدور وانتزعوا منها القلوب وتلمسوه فيها –إن استطعتم– في الشغف والضمائر والمهج والأرواح.. فهو الشيئ الوحيد الذي لا تستطيعون الأمساك به لتودعوه سجونكم وزنزاناتكم...

لقد جئ بي إلى هنا بتهمة أنني إنسان رجعي أتسترُ بالدين للإضرار بالأمن العام..

وأنا أقول لكم: إنَّ إمكانية عمل شئ لا يستدعي وقوعه بالضرورة، ولا المحاسبة عليه، فعود الكبريت يمكنه إحراق بيت بأكمله، ولكن وجود عود الكبريت في جيبي ليس معناه أني أريد إشعال النار في بيت ما، وبالتالي لا يعني ارتكاب أية جريمة..

إن انشغالي بعلوم الإيمان والإسلام لا يخدم إلاّ رضى الله تعالى، وحاشا أن يخدم أيّ غرض آخر..

لقد تساءلتم: هل أنا ممن يعمل على تأسيس طريقة "صوفية" جديدة تضاف إلى بقية الطرق؟.. وإنني أقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر "حفظ الإيمان" لا حفظ "التصوف" لأن الكثيرين من الناس يدخلون الجنّة وإن لم يسلكوا في حياتهم طريق التصوف، ولكن أحداً لا يدخل الجنّة بغير الإيمان..

وتقولون: من أين تأتي بالمال اللازم للانفاق على شؤون جمعيتك؟..

وأنا بدوري أسأل هؤلاء السائلين: ما هو دليلهم على أنّي أقوم على رأس أيّ نوع من أنواع الجمعيات كما يتوهمون، أو أنني أمارس أيّ نشاط يمكن أن يحتاج إلى المال.. فإذا كان عملي التعليمي مما يؤاخذ عليه القانون لوجب أن يكون آلاف المعلمين في تركيا واقفين اليوم إلى جانبي في هذا القفص هم وتلامذتهم...!

الحرية و جلادوها

كان الإسلام – وما زال – مستعداً لمنازلة الأفكار والأيدلوجيات التي تعاديه، شريطة أن يجري هذا النزال على ساحة مكشوفة، وفي النهار وتحت أشعة من الفكر النزيه..

ولكن مما يثير الحزن، أن كل الطعنات الموجّهة للإسلام هي طعنات متلصصة جبانة يأباها خلق الرجولة، وترفضها تقاليد الفروسية.. وإلاّ فاية شجاعة هذه التي تبيح لنفسها تقييد الخصم وتكبيله، وخنق صوته، ثم الإنهيال عليه طعناً بالمدى والسكاكين..؟ وأيّة بطولة هذه التي لا تنشط لإستعراض عضلاتها إلاّ تحت جنح الظلام، وعندما يتمّ التعتيم الشامل على منابع النور في هذا الدين العظيم..؟!

وكان "النورسي" ينتفض في محبسه انتفاضة غاضبة، ويزأر زئيراً مرعباً كلما بلغ مسامعه – في ليل تركيا – عواء أعداء الله، ونباح الفاسقين المسعور على الإيمان والإسلام...

وكان يُحسّ بما يشبه الحمّى تسري في كيانه، وتدب في عروق دمائه، فيقوم من مكانه، ويذرع المكان الذي هو فيه جيئة وذهوباً، مستغرقاً في تأملات فكرية غاية في العمق ومتوغلاً في أمداء ذهنية بعيدة، مستحضرا بذلك كل قواه النفسية والفكرية ومستجمعاً كل طاقاته الإيمانية، ثم يشرع بإملاء ردوده التي تدحض أفكارهم، وتنسف – من الأساس – مرتكزات عقائدهم، وتفند ما يأتون به من أباطيل، وما ينشرون من أوهام...

ويسارع الحضور في مجلسه إلى كتابة ما يمليه عليهم، حتى إذا انتهى من إملائه، وانفضّ المجلس، عكفَ كلّ مَنْ كان حاضراً مجلسه ذاك، على كتابة عدة نسخ من هذه الرسائل، وقام بتوزيعها على أقاربه ومعارفه، وكان كل واحد من الأقارب والمعارف يكتب عدة نسخ منها ويقوم بتوزيعها على الآخرين، وحتى النساء والفتيات اللواتي كنّ لا يعرفن القراءة والكتابة. كنّ يستنسخن هذه الرسائل كما لو كنّ ينقشنَ نقوشاً أو رسوماً على أغطية المشارف، وأفرشة المقاعد.. وهكذا كانت تنتشر الألوف من هذه الرسائل المخطوطة بالأيدي في طول البلاد وعرضها، ويتلقفها الناس بكل حماسة واهتمام.. لم يكن حرمان "النورسي" من أبسط وسائل النشر والتبليغ ليثبط عزيمته، أو ليفُتّ في عَضُدِهِ، فقد كان محظوراً عليه اعتلاء المنابر، ومحرماً عليه أن ينشر كلمة، أو يطبع كتيباً، ولكنه رغم ذلك لم يكن ليجد في هذه الحالة المحزنة ما يبرّر انصرافه عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه، واستخدام ما في حوزته من إمكانات متواضعة قد لا تلفتُ انتباه أحد، ومعالجة الأبواب الموصدة بمفاتيح ربما لا يلتفت إليها غيره، ولا يحسن استخدامها سواه، فهو إنسان عملي إلى اقصى الحدود وبإمكانه أن يفيد من إمكانات المحيط الذي يوجد فيه. ولم يكن "النورسي" مجرد مفكر يريد أن يزهو بفكره في الصالونات الأدبية، وعلى المقاعد الوثيرة الأنيقة في غرف الاستقبال الفخمة في مجامع الأدباء والمفكرين.. ولم تكن أفكاره ترفاً فكرياً لا يحسن تقديمه إلاّ على قراطيس ملساء في كتب رشيقة مذهبة.. ولم تكن عقيدته مجرد موقف نظري من الحياة يمكن الإستغناء عن الأفصاح عنه، أو تأجيل نشره إلى الوقت الذي يناسبه..

كلاّ لم يكن "النورسي" مفكراً من هذا الطراز من المفكرين النظريين، ولا ينبغي له أن يكون، فالإيمان الذي يحمله "فكر عملي" يعيشه المفكر ويحيا به، ويتنفس في أجوائه ويعالج مفردات يومياته من خلاله وعلى ضوئه، وهو خبز كل يوم وكل ساعة لاغناء عنه لكل إنسان، فهو الأساس الذي ينهار الوجود من دونه، وتظلم الحياة في غيابه، ويمحل القلب الإنساني، وتجدب الروح، ويقفر الوجدان عندما يحال بين الإنسان وبينه. ومن هنا كان "النورسي" عميق الإدراك لبشاعة الجريمة التي يريد أعداء الله أن يرتكبوها في حق الإنسان والحياة والوجود، وشديد الإحساس بخطورة الظلم الفاحش الذي يريدون إنزاله بالحق والخير والجمال في هذا العالم.. وكان لا بد له أن يتحرك رافعاً راية الجهاد مهما يكن افتقاره إلى وسائل هذا الجهاد وإمكاناته.. فيبدأ من أية مرحلة.. ومن أية نقطة. ولو كانت هذه النقطة هي "الصفر" الذي لا يعني شيئاً...

وقد التفت هؤلاء الأعداء والخصوم أول ما التفتوا إلى المدارس والكليّات ومعاهد العلم فرفعوا منها "دروس الدين" وتوجهوا إلى الكتب المتداولة بين أيدي الطلبة يحذفون منها كلّ ما يشير إلى "الله سبحانه وتعالى" كخالق مبدع، ورب قدير، خلق الأكوان وأوجد العوالم، واستخلف الإنسان في أرضه، ونسبوا الخلق والإبداع والتكوين إلى نظريات وهمية ليس لها أي أساس علمي رصين وجعلوا من "الطبيعة والصدفة والنشوء والتطور" أرباباً من دون الله ينسبون إليها خلق السماوات والأرض والوجود والحياة والإنسان حتى غدا جحود الله وعدم الإيمان بالخالق ثوباً لا بد أن يرتديه — ولو مكرهاً — مَنْ يدعي العلم والثقافة والتحرر.. وأخذت نيران القلق الروحي، والتمزق

النفسي والتأزم الوجداني، تجتاح شباب "تركيا" وتلتهم نفوسهم وتعمق عذاباتهم، وتحفر أخاديد مروعة، وتحدث شقوقا مخيفة وشدوخاً دامية في مكونات النفس المفطورة على الإيمان، وفي موروثات القلب وأشواقه الدائمة إلى الله سبحانه وتعالى...

يقول السيد الأستاذ "عبدالله يكن" مصنف القاموس التركي الحديث في معرض سرده لأحداث تلك الفترة الحالكة من تاريخ تركيا:

كنت أنا وصديقي "رفعت" يومذاك طالبين في إحدى المدارس المتوسطة، وكنّا نمّر بتجربة روحية قاسية، حيث كانت نيران الشك والقلق والحيرة تأكل قلوبنا وعقولنا، وكنّا نُحسّ وكأنّنا نغوصُ يوماً بعد يوم في أعماق هاوية من التعاسة والشقاء لا قرار لها، ونتخبط في ليل دامس لا فجر له... وشاءت لنا العناية الإلهية أن نلتقي "النورسي" وأن تتكرر زياراتنا له، فكان لا ينفك يحدثنا — في كل لقاء — عن معان إيمانية لم تكن لتخطر لنا على بال، ويدلل لنا بأسلوب غاية في الصدق والبساطة والوضوح على وجود الله ووحدانيته، حتى أزاح من نفوسنا كل شك أو شبهة، فغمرتنا من جديد طمأنينة الإيمان، وسكينة اليقين، وطفحت نفوسنا بسعادة تجل عن الوصف، وأشرقت أرواحنا بشموس البشر والفرح، وكنا نحسّ في أعقاب كل زيارة للأستاذ "النورسي" وكأننا قد ولدنا من جديد، وإننا نتلقى حياتنا الجديدة البكر لأول مرة من يد الله نفسه....".

كيمياء الحياة

حيارى أرشدنا.. ضالّون اهدنا.. شاكوّن بددّ شكوكنا.. معذبون اغسلنا بماء الرحمة.. مظلمون رُشّنا بنور الإيمان.. محترقون أطفيء نيراننا ببرد اليقين.. أكبادنا حرّى.. قلوبنا ولهى.. أرواحنا ملتاعة.. نفوسنا ممزقة.. أشواقنا مخنوقة.. أنّاتنا تفزع سكينة الليل.. ضمائرنا تنزف وهي تتلوى بأصدق الآلام البشرية كلما شهدت عمق الهوة التي نتردّى فيها.. نلجأ إلى معلمينا وأساتذتنا فيسكبون فوق نيراننا نيراناً.. ويصبّون فوق آلامنا آلاماً.. نُهرع إليهم فلا يزيدوننا إلاّ عنتاً.. ونمدّ إليهم أيدينا فلا يزيدوننا إلاّ غوصاً.. ونصرخ مستنجدين فلا نرى في ظلمة الأعماق حبل نجاة ولا يد إنقاذ..

جئناك – ياسيدي – فخذ بأيدينا إلى الله.. أزح بيننا وبين خالقنا الحجب.. عرّفنا به.. ضعنا على الطريق إليه صلنا به.. إملأ نفوسنا بمعرفته.. وكحّل بصائرنا بسنا نوره.. ودع سفينة عذابنا ترسو على ضفاف رحمته.. وشواطئ عنايته..

وتتلقفهم يداك، ويحتضنهم قلبك، وتضمهم روحك وتمضي تحدثهم حديث الأب الرحيم: يا أولادي! إنّ الذي لا يعلمكم أول ما يعلمكم التأمل العميق في الأشياء المحيطة بكم لا يعلمكم – في الحقيقة – شيئاً.. وإنّ الذي لا يهديكم لتعمق الظواهر والأحداث التي تعايشكم وتعايشونها في حياتكم اليومية يريد أن يضع بينكم وبين الحقيقة ألف حجاب

وحجاب.. الأصداف كثيرة وهي ملقاة على ضفاف الحياة ومَنْ لم يرشدكم ويضع بين أيديكم مثاقب فكرية تستطيعون بها أن تثقبوا هذه الأصداف، وتزيحوا هذه القشور لتصلوا إلى الدرر واللآليء واللباب فهو غشاش مخادع لا يؤتمن على صياغة العقول وبناء الأفكار..

يا أولادي.. يا فلذات كبدي.. تعلّموا كيف تتأملون وتغوصون بأفكاركم إلى الأعماق، اصغوا لما تقوله لكم هذه العلوم التي تتدارسونها.. فهي لو اصغيتم لحديثها كما ينبغي لحدثتكم عن الله ولعرفتكم على خالقكم.. هل فيكم واحد لم يرَ القناني المرصوفة على الرفوف في أية صيدلية من الصيدليات.. أليس في كل قنينة دواء محضر ومهيأ بنسب معينة وبموازين دقيقة لشفاء مرض من الامراض.. هل يمكن لأحد أن تواتيه الجرأة فينكر أن وراء هذه القناني كيميائياً ماهراً وصيدلانياً حكيماً.. وأنا أسألكم:

ألا ترون معي أن كرتنا الأرضية هذه ما هي إلا صيدلية واسعة كبيرة تتراص مخلوقاتها على رفوف هذا العالم وكل مخلوق هو قارورة كيميائية تجري فيها أدق التفاعلات الكيميائية وأصعب معادلاتها؟! وهل الحياة في كل كائن حيّ إلاّ كيمياء.. قطرة الماء كيمياء.. تنفس النبات كيمياء.. لبن البقرة وحليب الأم كيمياء.. عمليات الهضم في الإنسان والحيوان والنبات كيمياء.. الإحتراق الذي يولّد الطاقة والحرارة في الأجسام كيمياء.. والصحة نتاج تفاعل كيماوي موزون.. والمرض نتاج إختلاف طارئ في هذا الميزان.. فكيمياء الحياة تفوق بدقتها وموازينها أضعاف أضعاف دقة كيمياء الأدوية وتراكيبها في صيدليات الأرض كلها.

والآن قولوا لي: إذا كانت علومكم الطبية نفسها تقول: إن وراء كل تركيب دوائي كيميائياً وصيدلياً حاذقاً.. أفلا تقول – نفس هذه العلوم – أن وراء كيمياء الحياة المبثوثة في كل مخلوق على هذه الأرض خالقاً حكيماً مدبراً – خلق كل شئ بميزان. وصاغ كل مخلوق ضمن معادلة كيميائية تكفل له الحياة وممارسة عمله ووظيفته في هذا العالم. ألا ترون معي أن الذي ينكر خالق كيمياء الحياة، جدير أن ينكر نفسه، وينكر رؤية الشمس في رابعة النهار..؟!

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ (سورة إبراهيم؛10)

تأمل هذه الآية وما فيها من الإستفهام الإنكاري، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته، من أوضح البدائه لكل من أبصر بعينه مرة هذه السموات والأرض، غير انه بالرغم من ذلك، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات. أقل ما فيها أنها تومئ إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى. وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها في الغالب إلاّ أحمق ذاهل عن حقائق الأمور، وملحد جعل من بردعة المادة حُلّة يفاخر ويتباهى بها:

أحداها "أوجدته الأسباب".

والثانية "تشكل بنفسه".

والثالثة "اقتضته الطبيعة".

إن محالات كثيرة تنبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاث القذرة، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علمي موسع، لتجاوزت تسعين محالاً من

المحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل، ولكني سأكتفي من بيان ذلك كله بالعُشر فقط، أذكره في عبارات موجزة سريعة.

إن (**المحال الأول**): الناتج عن كلمة "أوجدته الأسباب" يظهر جلياً واضحاً في هذا المثال:

احتجنا إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير، وقام الصيدلي بتحضير هذ المعجون طبق موازين دقيقة ونسب مقرره بحيث لو أن بعض أجزاء العقار زاد على الحد المطلوب أو قلّ عنه، لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه. فلو أن هزّة قوية أطاحت بتلك القوارير من فوق رفوفها فتكسرت وسال ما فيها على الأرض، وجرى بعضه إلى بعض، فاختلطت الأجزاء المتنوعة، وتلاقت مع بعضها، فهل يمكن – عقلاً – أن يكون المحصول المركب من ذلك المزيج هو نفس ذلك العقار الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة العقل السليم والتفكير المستقيم؟!.

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع، ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة أخذت بمقدار ووضعت إلى بعضها بحكمة ونظام..

ولا ريب أن إسناد وجود هذه المعاجين الحية في أحياء الأرض إلى الأسباب المادية الجامدة والعناصر الصامتة، هو أشنع وأقبح من إسناد وجود ذلك المعجون إلى إنكسار القوارير واندلاق ما فيها، واختلاط بعضه ببعض مشكلاً العقار المطلوب..

المحال الثاني: إن إسناد خلق الأشياء إلى الأسباب المادية، يستلزم – منطقا – أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة والمتناقضة في طبيعة وجودها وعملها، تأثير مباشر في وجود الأشياء، والحال أن تلاقي هذه الأسباب المختلفة والمتباينة على صعيد واحد، وتوقيت إجتماعها، واتفاق كلمتها، وتقسيم العمل فيما بينها، وحساب ما ينبغي أن يعطيه كل عنصر، ويقوم به كل سبب، في عملية خلق بعوضة واحدة مثلا، إنْ لم يكن هذا الامر من اجلى وأوضح المحالات فهو من أشد الممتنعات. لان جسم البعوضة على صغره ذو علاقة بأثر العناصر والأسباب المادية المبثوثة في الكون، بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها. فلو سلمنا جدلاً بإسناد خلق هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب، للزم أن تحتشد في ساعة الخلق جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند ايجاده، بل يجب تواجدها كلها كاملة في جسمه، بل في حجيرة من حجيرات جسمه، لأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجوداً مع المسبّب داخلاً فيه، أي ينبغي أن تكون هذه العناصر المادية – رغم ما فيها من تناقض – مجتمعة كلها على الدوام تعمل عملها في كل حجيرات جسم البعوضة دون من يدفعها إلى هذا التلاقي والتفاعل. وهل هذا إلاّ وهم يستحي البلهاء أنفسهم من الهذيان به.

المحال الثالث: إن القاعدة البديهية تقول: "إنّ الواحد لا يصدر إلاّ عن الواحد" أي ان كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والإنسجام في مظهره وشكله – فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحدا. لان التأليف بين المتنافرات يجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية، لا يمكن أن يتم – بالضرورة – إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة، ولا ريب

أن هذا العالم العظيم تجمعه كله وحدة الإنسجام والتنظيم، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى مئات الألوف من الأسباب الجامدة المتناقضة التي لا شعور لها، ولا عقل، من أعظم الخرافات المضحكة. هذا بالإضافة إلى أن الأسباب المادية التي يُعزى إليها – باطلاً – الخلق والتكوين لا يمكنها أن تؤثر فيما يحيط بها من أشياء إلاّ بالتماس والمباشرة، والتماس والمباشرة يقتضيان تجانساً وتطابقا بين الشيئين المتماسين في بعض خصائصهما على الأقل. وغير خاف أن ما يشاهد من تجانس فيما بين هذه الأسباب المادية هو تجانس ظاهري فقط في الأشكال والصور، أما بواطنها وما وراء المحسّ منها – أي في طبيعة ذراتها وجزئياتها التي تعطي للعناصر أشكالها وخصائصها فالأمر جدّ مختلف، فأين أسبابها المادية الموجدة لها؟ بل أين من يستطيع التفريق في أعماق تلك البواطن بين المؤثر والسبب المتاثر، أي بين الفاعل والمنفعل، وكذلك أين هو الإنسان الذي يستطيع أن يفصل بينهما في الزمن والجوهر والحدود؟!.

أما الكلمة الثانية: "تشكل بنفسه" فهي أيضاً تنطوي على محالات لا تعمى عنها الأبصار.. إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير بلغ في دقته غاية الروعة والإنسجام.. إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام.. إنّ لجسمك تفاعلاً – في غاية الإنتظام – مع سائر مظاهر الوجود من حولك، إنه أشبه ما يكون بتفاعل البيع والشراء والأخذ والعطاء.. من ملايين الذرات العاملة في جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه، وهكذا تعلم أن الإنسجام ليس بين ذرات جسمك وحده، بل بين

مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حوله. إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك!!..

فإذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية في جسدك، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلي العظيم لزمك أن تقول إنّ للذرات التي تتفاعل في حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلاً عقلاً متفلسفاً هائلاً، وضع به قانون الإنسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة، وذرة من ذرات الوجود من حولك من جهة أخرى، سواء كان ذلك الوجود هواءً أو ضياءً أو طعاماً أو شراباً أو أي شئ آخر كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر يدرك منابع دهرك، وعناصر آبائك وأجدادك يتصور ماضيك ومستقبلك.. ياالخرافة العناد المتكبر!.

أما إذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسّي هذا، أي أن له أيضاً أسبابه المادية وتفاعله الذاتي، فإن السؤال يلاحقك عن العالم الثالث الذي من ورائهما. والذي هو أدق من كليهما. وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية وتمتد إلى حيث يصل وراءها عناد المعاندين وجحود المنكرين.

الكلمة الثالثة: "إقتضته الطبيعة" ويتفرع عنها سلسلة من مظاهر التهافت المضحك، نجمل بعضها فيما يلي:

- إن صاحب هذا القول ملزم بالإعتقاد كل ذرة من ذرات الوجود تنطوي على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية، وأنها تشتمل على القدرة والطاعة الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من

حولنا، وما على هذه القدرة إلاّ أن تنفذ وتعمل عملها في إبداعات أخرى متواصلة التكوين والحدوث..!

إذ مادام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة، المدبرة الحكيمة، المنفصلة عن غيرها، وليست مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها. فلا مناص من التزام هذه النظرية الموهومة. تماماً كالذي يرى شعاع الشمس منعكساً على الأبصار من قطرات المياه، وقطع الزجاج، والأجسام الشفافة، فيتوهم أن في كل جسم من هذه الأجسام "طبيعته" الشعاعية المستقلة بذاتها، وأن هناك شمساً حقيقية ضمن كل جسم من هذه الأجسام المضيئة على حدة.

ومَنْ أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبناها..!

– وصاحب هذا القول ملزم أيضاً أن يعتقد بأن شبراً واحداً من أي أرض ينطوي على ما لا ينطوي عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة، وذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لا تزيد مساحته على شبر يمكن أن تستنبت فيه معظم أنواع نباتات وأزهار العالم على سبيل التناوب.. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في هذا الشبر من التراب قدرة التفاعل مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور، ليعطي كلاً منها ذاته وشكله وخصائصه، إذاً لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة. علماً أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف، وهي عبارة عن مزيج من: مولد الماء، ومولد الحموضة،

والكربون والآزوت، ومواد الماء، والهواء والحرارة والضياء وهي الأخرى بسيطة لا تختلف في تفاعلها من نبات لآخر.

ومع ذلك فإن هذه النباتات تنبثق من ذلك الشبر من الأرض، وكل نبات يحمل صفاته وخصائصه ولونه ورائحته، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شئ آخر إلى جانب المواد المعروفة للتراب من بذر وهواء وحرارة هو الذي يَمُدُّ هذه البذور بخصائص التشكل والتميز.

ومما تقدم يتبين أن الطبيعة صنعة لا صانع، نقش لا ناقش، حكم لا حاكم، شريعة لا شارع، مخلوق لا خالق، منفعل لا فاعل، مُصَدَّرٌ لا مُصَدِّرٌ.

المحاكمة

في نفس كل إنسان توقُ فطري هاجع إلى الحق والعدل والمساواة وفيه حنين نزّاع إلى الخير والجمال والفضيلة وكره طبعي شديد للباطل والظلم والشر والقبح والرذيلة..

فقد يتحمل الإنسان من الدولة التي يعيش في كنفها ويستظل بظلالها أن تشبعه يوماً وتجيعه يوماً آخر، وتمنحه مرةً وتمنعه أخرى. ولكنه لا يقبل منها – إلاّ على مضضٍ – أن تفرق بينه وبين زيدٍ من الناس، فتعطي زيداً مالا تعطيه له وتسمح لزيدٍ مالا تسمح به له.

تلك هي الفطرة التي فُطر عليها الناس، وتلك هي المبادئ التي ولدت معهم يوم ولدوا، وجاءت معهم يوم جاءوا إلى هذه الدنيا. لذا فقد بات من أعظم ما يطمح إليه الإنسان، ويحلم به، ويلحّ عليه، ويتوجّه إليه، أن يرى الدولة التي هو جزء منها وهي محكومة بمبادئ العدل والحق والخير والجمال.. ففي أجواء الحق والعدل والخير والجمال، ينمو الإنسان ويكبر. وتخضّر شجرة حياته وتورق، وتتفتح أزاهير فكره وتعبق وتزدهر نفسه وتخصب روحه وتتاح له الفرصة كي يحيا أفكاره ويعايشها. ويعبر عنها ويبشر بها دون خوف أو وجل، ويصبح في امكانه أن يفصح عن عواطفه، ويبوح بمكنونات سرّه، دون خشيته من الوقوع تحت طائلة الحساب والعقاب، وبذلك يمضي في حياته وهو يستمتع بصحة نفسية سليمة وعافية فكرية خالية من أمراض الكبوت والضغوط التي تضطره في خاتمة المطاف إلى مرض "أزدواج

الشخصية" العضال، وإلى داء النفاق الاجتماعي الذي يفسد علاقته بالأفراد والمجتمع والدولة، ويقطع ما بينه وبينها من حبال الصدق والإخلاص والمودّة.

والدولة –بعد هذا وذاك– هي شخصية الأمة المعنوية التي يتمثل فيها –بل ينبغي أن يتمثل فيها– روح الأمة وعقلها وقلبها وأشواقها وآمالها وتوقها العظيم لمبادئ العدل والحق..

أما إذا داءت نفس الدولة بفكرة الهوى. ومرض عقلها بوباء الإنحياز والمحاباة بين رعاياها، وشاءت أن تضع سلطانها في خدمة فئة من أبنائها، وإرهاب فئة أخرى والتسلط عليها، متنكرة لقيم الحق والعدل والمساواة، ومتجاهلة كونها أماً للجميع، وموئلاً للكل. حين يحصل هذا، فإن احساساً مؤلماً بالظلم وشعوراً حزيناً بالإضطهاد يبدأ بالتسرب إلى نفوس الناس، ويملؤها بالمرارة والأسى وخيبة الأمل، وعندئذ تفقد الدولة هيبتها وتخسر احترامها، وينفرط عقدُ أعوانها وأصدقائها..

والمؤمن إنسان تحكمه المبادئ، وهو يريد أن يتحاكم إليها أيضاً ولا يخشى حكمها، أو يهاب قضاءها، ولكن غالباً ما تتم محاكمة أصحاب الإيمان ورجال القرآن في غياب المبادئ الأخلاقية والفضائل الإنسانية.. إن الغرور والشهوة والهوي حين تدقّ بأقدامها وجه العدل والحق، وتدوس على حقوق الإنسان وحرياته الأساسية –في أي مكان من الأرض– فقد يعني هذا انهياراً مرعباً في الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها الدول، وهبوطاً سريعا نحو معاداة الإنسان ووضعه موضع الإتهام والريبة فيما يصدر عنه من نشاط فكري.. وإلاّ فكيف يمكن أن تفسّر "مئات المحاكمات" التي تعقد لرجل كل

همّه معالجة القضايا الإيمانية، ومدارسة العلوم القرآنية، وما هو التبرير الذي تقدمه دولة ما حين تقدم على زج إنسان في زنزاناتها وسجونها الشهور والأعوام –لا لشئ إلاّ لأنه يمدّ الناس بالأفكار التي تزيد من إيمانهم، وتعمق عقيدتهم– ويضع بين أيديهم السلاح الفكري الذي يستطيعون به تفنيد ما يبثه المارقون والجاحدون من سحب التشكيك في إيمانهم وعقيدتهم..؟!

تلك إذن هي جريمتك –يا معلم الإيمان–.. أنتَ تعلم "الحقيقة" العظمى التي هي منبع كل حقيقة في هذا العالم.. وهم يريدون أن يطمسوا عليها بألف حجاب وحجاب.. أنت تهدي إلى الحق وهم يخافونه ويخشون نوره، لأنهم بالباطل يعيشون وبه وعليه تقوم عروشهم وترتفع أمجادهم.. هم يخافونك لأنهم ضعفاء رغم ما يملكون من مال وسلاح وسلطان، وأنت بانتسابك للإيمان قويٌ بقوة الإيمان وعظمة القرآن، فكيف لا يخشاك الأقزام، وإن تطاولوا.. وكيف لا يخافك الصغار وإن تكابروا..

وفي قفص الإتهام –وهل حياتك إلا قفص اتهام دائم– تُلقي دفاعك:

أجل –أيها السادة– لا سبيل للإنكار باننا أعضاء عاملون في جمعية الإسلام الكبرى التي تضمّ إلى صفوفها مئات الملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم في معسكر. "الإيمان" هذا يقومون في صفوف متراصّة بعرضٍ إيماني رائع خمس مراتٍ في اليوم والليلة ويعطون العهود والمواثيق لله مولاهم على البقاء متعلقين بنظام هذا المعسكر وبدستوره العظيم حتى آخر خفقه من خفقات قلوبهم.. وهم يرفعون فيما بينهم شعار. "إنما المؤمنون إخوة" ويتسابقون في حرص عظيم على وضعه موضع التنفيذ والتطبيق في علاقاتهم، بعضهم مع البعض الآخر فيما يضطربون فيه

من شؤون حياتهم.. وتتاساءلون: ما هو عملكم؟ وإلى ماذا تسعون؟!.. وأنا أقول لكم بكل صراحة:

إن عملنا وواجبنا هو تعريف إخواننا المؤمنين بحقائق القرآن. ومنابع الإيمان، تعريفاً علمياً راسخاً. وذلك تعاوناً منّا جميعاً على إعتاق رقابنا. وإطلاق نفوسنا من سجن الأبدية الرهيب الذي يتهددنا جميعاً، والذي ليس بيننا وبينه إلاّ أن ينقلنا إليه الموتُ في طرفة عين..

تفكرون وتُعملون أفكاركم، وتتساءلون فيما بينكم: كيف السبيل إلى إيقاف هذا السيل النوراني العظيم المتمثل في "رسائل النور"؟ وأنا أقول لكم:

لا جدوى من كل ما تتخذون من وسائل، ولا طائل من وراء ما تضعون من سدود وعوائق.. إنّ "رسائل النور" قد وُضِعتْ في خدمة حقائق القرآن. والقرآن حقيقة مرتبطة بعرش الله العظيم.. ومن ذا الذي يتجرأ على الوقوف في وجه حقيقة ترتبط بعرش الله تعالى..؟ إنّ من يريد الإنتحار. ويطلب الخزي الأبدي فليجرب قرنيه في جبل هذه الحقيقة التي يزيدها المدُّ الزماني قوةً على قوتها وصموداً على صمودها..

إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط، بل وإلى تلك الزمرة المتآمرة في ولاية "اسبارطة" ضدّنا.. إنّي لأعجب كيف يُتّهم أناسٌ بتهديد الأمن والسلام وهم يتبادلون فيما بينهم "تحية القرآن" وهي "السلام" ويتدارسون فيما بينهم بيانه وحقائقه ومعجزاته، ويقفون عند أوامره ونواهيه.. كيف يريدون لهؤلاء الناس الهبوط من هذه الآفاق النورانية العالية والقيم الفكرية الرفيعة، إلى مستنقع السياسة الرخيصة ويتهمونهم بأنهم سياسيون يعملون في أجوائها الموبوءة، ودهاليزها المظلمة.. نحن لا نعرف الظلام منذ

عرفنا نور القرآن. ولا نعرف في ديننا شيئاً نخفيه حتى نعمل في الخفاء. في حين يحق لمارقٍ مثل الدكتور "دوزي" أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار. في حماية الحكومة وتحت سمعها وبصرها متستراً بحرية الرأي والفكر.. أما نحن –خدام القرآن – الذي يشعّ نوره في أفئدتنا وفي أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين به إرتباطاً مصيرياً. والذي نعتقد أنه سفينة نجاتنا في الدنيا وفي الآخرة، فإذا ما كشفنا عن إيماننا به، وتحدثنا عن تمسكنا بتعاليمه، ودعونا الناس إليه.. فذلك هو الخطر ما بعده خطر. والجريمة التي ما بعدها جريمة، فتنهال علينا التهم، وتلتصق بنا شتّى أنواع الإفتراءات والأكاذيب، ونوضع موضع السياسيين المتآمرين على الحكم والجمهورية.

إنكم تتهمونني بمعاداة الجمهورية.. وكيف أعادي ما أحبه وأقدره وأحترمه.. إنني أكنّ شعور الإعجاب بالحياة الاجتماعية المنظمة التي يسعى الجميع فيها إلى الإرتقاء بشؤون جماعتهم... كلٌ من موقعه ومن خلال وظيفته.. حتى أنني أحببت الحياة الجماعية المنظمة للنحل وللنمل. ومذ كنتُ طالب علمٍ يؤتى لي بطعامي من الخبز والحساء، كنتُ آكل نصيبي منه ثم أنثر ما يتبقى منه بين جماعات من النمل كانت تقيم بالقرب من مجلسي تقديراً وإعجاباً بطراز عيشها الجماعي المنظم الجميل. إنّ شخصاً يتأمل الساعات الطوال مجمّعات النمل، ويراقب سلوك جماعاتها العاملة، ويحبها ويعجب بها، لا يمكن أن يعادي جمهوراً بشرياً عاملاً في ظل جمهورية صالحة تعرف واجبات كل فرد من أفرادها وتحترم حقوقه. وأكبر دليل على تقديري العظيم للجمهورية هو احترامي الكبير لخلفاء الإسلام. فقد كانوا إلى جانب كونهم "خلفاء" رؤساء جمهورية أيضاً، ولقد كانت حياتهم حياة

جمهورية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجمهور رعيتهم، يشاركونهم في السرّاء والضرّاء. لا في الادعاء اللفظي فقط بل في الحقيقة والواقع. تفخرون بكونكم علمانيين، وبأنّ جمهوريتكم علمانية.. ونحن نتمنى أن تكونوا "علميين" صدقاً، تتناولون قضاي الدين والإيمان بمنطق العلم وأسلوبه الهادئ الرصين في البحث والاستقصاء.

فالعلم نفسه لا ينفي ولا يثبت عندما تستعصي على منطقه ووسائله أية قضية من القضايا التي يتناولها بالبحث بل يقف منها موقفاً محايداً في انتظار ما يمكن أن تأتي به الأيام من حقائق سلباً أو إيجاباً.. وليت جمهوريتكم تقف من "الدين" هذا الموقف المحايد فلا تتعرض له بخير أو بشرّ.. ولكن ها أنتم أولاء تفسحون الطريق أمام حفنة من "أنصاف المثقفين" وأدعياء العلم لكي يرتكبوا كل جريمة وفاحشة، ويجترحوا الأكاذيب على الله، ويفتروا على الكون والوجود باسم الحرية الوجدانية والفكرية.. حتى إذا تصدينا لهم بالردّ، وسلطنا الأضواء على أكاذيبهم وافتراءاتهم، وجئناهم بآيات من "القرآن الكريم" نجلوها، ونكشف عما فيها من أسرار وعلوم وحقائق في الحياة والكون والوجود، تضايقتم من ذلك ورفعتم أصواتكم بالنكير وقلتم: هاهنا جمعية سرية رهيبة تعمل ضدنا.. وتتآمر علينا.. أوقفوا هؤلاء السياسيين عند حدهم.. انفوهم شردوهم.. اسجنوهم..

لقد توضحت الأمور وانكشف ما كان مستوراً.. إنكم لا تتعاملون مع الدين بالعلم الذي تدعونه.. ولا بالعقل الذي تتظاهرون بإحترامه.. ولكن بالكره والحقد والضغينة.. إنّ المسألة إذن من الخطورة والإجرام، بحيث أنكم تحاولون سترها برداء العلمانية التي نعتبرها غايةً في العدل بالنسبة الى ما

تخفية تحتها من أبشع المظالم.. فإن كان الأمر كذلك –وهناك ألف دليل ودليل على نياتكم الشريرة تجاه الدين– فاعلموا أنه لو كانت لي ألف روح فأنا على استعداد أن أضعها جميعاً الواحدة بعد الأخرى فداءً في سبيل أهم حقائق الكون: ألا وهو دين الله تعالى.. ولن أحتمي منكم بغير حصن واحد فقط هو "حسبنا الله ونعم الوكيل".

أيها السادة أعضاء المحكمة: إذا جاز في حكم العقل أنّ نور الشمس يمكن أن يخفي ما يقع عليه من شئ وأنّ أشعتها يمكن أن تصير ظلمة يستتر وراءها الإنسان في رابعة النهار، وأن وهج ضوئها يمكن أن يتحول الى ستائر سوداء مسدلة تحتجب خلفها الأشياء.. أقول: إذا جاز هذا في حكم العقل جاز أيضاً أن يتستر بالدين، ويحتجب به مَنْ يريد من ذوي الأغراض الدنيوية وأصحاب المصالح السياسية الضيقة المحدودة.. لأن الدين الحق، والإيمان النقي الخالص، هو نور مشع لا يقبل ظلاماً، وضياء ساطع يرفض أن يخفي وراءه عملاً من أعمال الدنيا، أو يتستر على غرض من أغراضها التافهة الرخيصة.. فكل عمل لا يبتغي به صاحبه مرضاة الله سبحانه وتعالى – سرعان ما يكشفه نور الإيمان، ويقذف به خارج معسكره.. فكيف جاز لكم أن تتهموني بأنني أتستر وراء أعمالي الدينية الصرفة للإخلال بالأمن، وتعكير صفو السلام؟.. وأنا منذ ربع قرن أمسك بيدي هاتين مصباحاً وأجوس به خلال الظلام لأدلّ الناس على الطريق الى اللّٰه ، وأساعدهم لإنقاذ أنفسهم من بين براثن الدنيا وقيودها وأغلالها الى نور الدين ورحابة اليقين.

إن الذي يقف عاري النفس والقلب والضمير أمام خالقه خمس مرات في اليوم والليلة، ليس من طبعه أنيخفي على الناس مالا يقوى على إخفائه عن الله، وقد آن الأوان لكي أقول لكم:

إنّ اتهامكم هذا الذي تشهرونه في وجوهنا كلّ مرة ما هو إلاّ غطاء تغطون به ما تدبرّونه من شرّ للدين، وما تضمرونه من حقدٍ عليه، ولو كنتم صادقين مع أنفسكم لقلتم: نحن نريد خنق الدين والقضاء عليه في هذه البلاد. ومنع أي صوت يمكن أن يتحدث باسمه، لذلك جئنا بكم الى هنا.. وإلاّ فأنتم تعلمون أنَّ "رسائل النور" التي تضئ في قلوب الألوف من المؤمنين منذ عشرين سنة، فهل سجلّت شرطتكم وأجهزة أمنِكم حادِثةً واحدة، ارتكبها طالب من طلاب النور للإخلال بالأمن؟.

ان المادة 163 من قانونكم التي تريدون محاكمتنا بموجبها لا يمكنكم تجريمنا بمقتضاها أو تطبيق منطوقها علينا.. أنتم تعلمون هذا جيداً.. لكن هي سيفكم الذي تشهرونه في وجوهنا بالباطل كلما أعوزتكم الحيلة.. وضاقت بكم السبل.. إذن فاسمعوا – يا مَنْ بعتم دينكم بدنياكم – وانتكسَتْ أرواحكم الى مهاوي الكفر المطلق... إنني أقول لكم بمنتهى ما أعطاني الله من قوة:

افعلوا كل ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام، نحن في كل وقت ننتظر أحكام إعدامكم.. أتظنون أننا نخاف الموت وهو سبيلنا الى لقاء الله .. أم تحسبون أننا نرهب سجونكم ونحن قلّما نغادرها حتى نعود إليها.. وحتى لو فككتم قيودنا

وأطلقتم سراحنا فإنّ سجناً أكبر وأشدّ عذاباً لنفوسنا وأعظم إيلاماً لأرواحنا، سيحتوينا ويطبق بثقله على خناق أفكارنا ومعتقداتنا حين لا يُسمحُ للأيمان أن يقوم بوظيفته ويؤدي رسالته، فنحن إذن في سجن دائم وحبس مقيم، سواءٌ وضعتمونا في غياهب سجونكم أو تركتمونا مطلقي السراح ولكننا مقيدو الفكر والروح.. وأنا أقول لكم: ضعونا في سجونكم إن شئتم... ولكن كل ما نطلبه هو أن تخلوا السبيل أمام "رسائل النور" لتأخذ طريقها الى الناس، فهي قوت قلوبهم وزاد أرواحهم.. أما إذا أصررتم على الحيلولة بين هذه الرسائل وبين الناس فإنكم بذلك ترتكبون جريمة كبرى كِبَرَ الكون بحق البشرية المعذبة التي تبحث عن الخلاص من عذاباتها... ولا خلاص لها إلاّ بالدين والإيمان..

ويلهب دفاعُكَ المحكم الرائع حماسَ الملايين المسلمة من شعب "تركيا" ويثير مدّاً هائلاً من المشاعر والعواطف والإهتمام المتزايد، وينبه الغافلين الى تلك المظالم الوحشية التي تتعرض لها أنتَ وتلامذتك من لدن السلطة في كل مرة، ممّا يضطر المحكمة أمام هذا الفوران الشعبي الهائج أن تصدر حكماً ببراءتك من التهم المسندة إليك..

ورغم هذه البراءة تظلّ موقوفاً في سجنك، وبعد زمن قصير تصدر الأوامر بنفيك هذه المرة الى ولاية "أفيون" في "قضاء أميرداغ" حيث توضع هناك تحت رقابة حكومية مشدّدة تمنعك من الإتصال باي مخلوق، أو كتابة أية كلمة حتى سنة 1947..

ومن منفاك القصي تُوجّهُ إلى "أنقرة" رسالة مشحونة بالمرارة والألم. ينقلها أحد تلامذتك وينشرها بين الناس ليتعرفوا عن كثب على أحدى المآسي الإنسانية التي تعانيها وتعايشها في منفاك ذاك:

أين أستطيع أن أتلمس هذا العدل الذي لا أبغي سواه.. أأبحث عنه في ظلمة الضمائر.. أم أجده في مقابر النفوس الخربة.. أو أقع عليه في جوهر الإنسان المهيب وقد غارَ في أعماق الظلم والظلمات.. إذا كان خصومي وقد طووا نفوسهم على أحقاد خارقة تجاهي هم أنفسهم قضاتي وحكامي، فأين أجد مَنْ ينصفني.. وكيف أشكو.. ولمن أشكو.. ليتكم لم تطلقوا سراحي.. ولم تمنحوني حريةً هي أشدَّ عليّ ألف مرة من حياة السجون والمعتقلات.. وأية حرية هذه التي أستمتع بها وأنا أعاني من وطأة حراسة شديدة ظالمة، ورقابة خانقة تكاد تحصي عليّ أنفاسي ونبضات قلبي.. إن يوماً واحداً من هذه الحياة الخانقة البائسة يضايقني ويقض مضجعي أكثر بكثير مما كان يضايقني شهر كامل في سجني المنفرد ذاك..

تزعمون أنني أمارس حريتي ومع ذلك –ورغم ضعفي ومرضي وشيخوختي وهذا الشتاء القارس– تمنعوني من كل شئ يمكن ان يخفف آلامي ويمنحني شيئاً من العزاء.. وتحولون بيني وبين أي إنسان يريد أن يقف الى جانبي ويعينني على قضاء حوائجي.. منذ عشرين سنة وحتى هذا اليوم وأنا أعاني مأساة حبس منفرد.. ألا يكفيكم هذا العذاب الذي تصبّونه عليّ صبّاً.. وتغمروني به من كل جانب غمراً..

إنني أشفق عليكم وأتألم لحالكم قبل حالي.. إنّ عذاباً إلهياً يوشك أن يعمكم مالم توقفوا صبّ عذابكم عليّ.. وكفّ مظالمكم – يمهل ولا

يهمل.. لأن الله تعالى لا يقبل الظلم لعباده.. وهو – جلّ شأنه – يمهل ولا يهمل.. إذا كانت محاكمكم قد أصدرت أحكامها ببراءتي من التهم المسندة إليّ.. وإذا كنتم قد اقتنعتم – بعد دراسة مكثفة استغرقت تسعة أشهر لما كتبته خلال عشرين سنة – بأن هذا الذي كتبته لا يهدد أمن الدولة، ولا يتعرض لرجالها بسوء، فلماذا إذن تحرمونني من أبسط حقوقي الإنسانية التي يتمتع بها سواي من الناس.

ألا يعني هذا أن هناك يداً خفية مسخرة لخدمة السياسات الإستعمارية –والتي لا يروقها رقيّ هذه الأمة ولا رقي دينها وعقيدتها– هي التي تغريكم بي، وتحرضكم ضدي، وكل غرضها أن تستنفد صبري، وتمتص تحملي وتوهن قواي، فأقول: حسبي هذا القدر من الجهاد، ثم أكسر قلمي، وأعقد لساني، وبذلك تتهيأ للأعداء داخل البلاد وخارجها فرصة الإنفضاض على الدين وإعمال معاولهم في إيمان الأمة وعقيدتها..؟ إنني أتقدم بجزيل شكري الى السادة المسؤولين في "أنقرة" على اهتمامهم بمعيشتي، والإيعاز لرجالهم في هذه المنطقة أن يقدموا لي وجبات طعام يومية على حساب الدولة..

ولكننا – أيها السادة – لا نحيا بالخبز وحده.. لا أريد خبزكم، إذا كان الثمن الذي تريدونه هو حرية فكري وروحي ووجداني.. إنّ الحرية هي قوام كل مخلوق على هذه الأرض.

عندما تحجرون على حريتي وتمنعوني من أداء واجبي الديني فإنكم تقتلونني وتقضون على حياتي. لم اكل الخبز الذي تقدمونه لي.. إن اقصائي عن حريتي وإبعادي عن مجال عملي الفكري تجعلني أمَلُّ حياتي مللاً شديداً ولو اكتنفتها أعظم مغريات العيش.. ولا أقول: إنني أفضل عليها الحبس

والسجن.. بل أفضل عليها القبر الموحش نفسه. على هؤلاء السادة الذين أصدروا أحكامهم ببراءتي أن يردّوا عليّ قبل كل شئ حرّيتي، ألاّ يمسّوها بسوء.. إنني يمكن أن أعيش بدون طعام ولكن لا أعيش بدون حرية.

نعم.. إنّ إنساناً عاش طوال تسع سنوات على مبلغ لم يزد على 200 ليرة تركية، دون أن يعرض نفسه معها الى ذلّ الصدقة والمسألة. وقبول الزكوات والهدايا، لا ريب أنه اليوم أعظم احتياجاً الى خبز الروح من خبز الجسد..

إنكم تمنعوني -وأنا في معتزلي هذا- أن ألتقي ولو بعشرة فقط من خلّص تلامذتي وإخوتي.. ولكن عزائي أن مليوناً من المسلمين يعكفون اليوم على دراسة "رسائل النور" فيما بينهم.. إذا كنتم قد استطعتم إسكاتي ومنعي من الكلام والتحدث الى الناس.. فإنكم لن تستيطعوا إسكاتَ رسائل النور التي تتوغل عميقاً الى شغاف القلوب.. إن كل نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أي قوة على الأرض...

الفصل الثالث

المعنى والمغزى

في مسار التاريخ الإنساني، وفي تحولاته الكبرى، يلعب "الشرّ" في ميادين الصراعات البشرية دوراً تحريكياً حافزاً لقوى "الخير" وطاقاته الكامنة في النفس الإنسانية وفي العالم..

فعندما يتفاقم الشر ويتعاظم أمرُه وتهبّ رياحُهُ فإن الخير – من موقعه السكوني – يتحرك بالمقابل أيضاً ليدخل – ضمن المسار التاريخي – في حلبة الصراع مع "مقولات" "الشر" وأفكاره.. فأحساس "الخير" بالخطر وشعوره باقتراب لحظات – ما قبل الإنهيار– يحفز قواه، ويطلق طاقاته، ويبقيه في صحوه دائمة، تمنحه القدرة على قبول التحدي، ومنازلة القوى الشريرة التي تريد استئصاله من الأرض.

فالشر – بهذا الإعتبار — هو الوجه الثاني "للخير" وان كان الوجه القبيح والمقيت، ولعلّ دوره في استنهاض الخير، واستفزاز قواه، وتفجير طاقاته –كلما أصابه الخمول واعتوره الفتور — هو حكمة وجوده في هذا العالم.. فالصراع البشري – عبر التاريخ – ليس – في الحقيقة — صراع طبقات متناقضة المصالح، بقدر ما هو صراع بين شرور هذه الطبقات

وفضائلها، وبين سمّو الإنسان وهبوطه وبين صراخ الأرض في طينته وهتاف السماء في قلبه وروحه.. فاحتدام الصراع بين "الرذيلة والفضيلة" يشكل وجه التاريخ الأساس ويرسم معالم طريقه نحو الأعظم والأجمل والأفضل.. لذا فإننا نلمس "روح الدين" وراء كل الحضارات الكبرى التي شيدها الإنسان على هذه الأرض، والغالبية العظمى من فلاسفة التاريخ يشيرون الى أن "الروح الديني" هو الفاعل الأساس في محركات التاريخ، وأنه أعظم أوجه التاريخ أهمية وأجدرها بالملاحظة والدرس.. وهم يتساءلون.

ترى ماذا يبقى للأفراد والشعوب والأمم من تاريخها على هذه الأرض، إذا نحن انتزعنا من سجلها التاريخي صفحات الوحي الإلهي التي تحتويها الأديان؟ وفي اي مكان – سواها يستطيع الانسان أن يكتشف معنىً لحياته، أو مغزىً لوجوده؟.. واكتشاف "المعنى" والعثور على "المغزى" هو الذي يعطي الإنسانَ الأملَ، ويمنحه اللذة والنشوة وهو في غمرة كفاحه الدؤوب من أجل "إنسان" "أفضل" و "إنسانية" أكثر نقاءً وطهارةً..

و"النورسي" وجد المعنى واكتشف "المغزى" وأدرك أنّه وُهِبَ أنفاس الحياة، ومُنِحَ مكاناً في هذا العالم لكي تتحرك من خلاله قوى الإيمان والديانات.. وإن كان هذا "المعنى" وهذا "المغزى" لا يأخذان تمام مداهما، ولا يستوفيان أقصى تحققهما الاّ في حياة أخرى يستأنفها في عالم آخر وراء هذه الحياة الدنيوية القصيرة الأجل.

وهذا الكشف أورث "النورسي" إطمئناناً نفسياً عجيباً، جعله يستعذب العذاب نفسه، ويستحلي المرارة ذاتها، ويجد لذته في قمة المعاناة والألم، فلم يتوقف – لحظة واحدة – عن بذل أقصى جهده للتبشير بهذا "المعنى"

وتسليط الأضواء على "المغزى" التاريخي للوجود عامة، ولوجود الإنسان وحياته في هذا العالم بشكل أخص.

وكان "الموت" وهو صنو "الحياة" ورفيقها في هذا الوجود مثار تفكيره بادئ ذي بدء في البحث عن "معنى" للحياة و"مغزى" لخلق الإنسان.

وكان "الموت" وهو يلف كل شئ ويطوي الإنسان والحيوان والنبات والجماد..

في كل لحظة من لحظات الزمن تموت عوالم، وتولد عوالم، يأتي الى الأرض –هذا الفندق الكبير– أقوام، ويغادرها أقوام من شتى صنوف الخلق، انساناً وحيواناً ونباتاً، وحتى الأزمنة والأمكنة تولد وتموت معاً، ولا تند –عن هذا الناموس المهيمن الشامل– أية ذرة من ذرات العالم..

لقد احب أماكن كثيرةً، وارتبط بها بأجمل العواطف والذكريات، وعندما ذهب يزورها بعد بضع عقود من السنين، وجدَ أنها قد حَالَتْ وماتَتْ ولم تعد كما كانت يوم أحبها وتعلق بها أول مرة..

توفي الكثيرون ممّن كان يحبهم، أقارب وأصدقاء ومعارف، فبكاهُمْ مُرّ البكاء، وحزن عليهم أعظم الحزن.. ولكنه أخيراً وجد عزاءه بالإيمان، وتيقن من خلال – معاناته الروحية – أن الذين يفارقوننا، ويذهبون عنا ليس بيننا وبين أن نلقاهم سوى هذا الخيط الرفيع الذي يشدّنا الى الدنيا، وهو سينقطع يوماً ما –كما انقطعَ بمن سبقونا – ويتركنا ننطلق الى حيث الأحبة الذين عبروا الى منازل الآخرة..

والآخرة واحدة من حتميات هذا الناموس الأكبر الذي تفضي كل مقدماته المحسوسة والمشهودة الى هذه النتيجة المحتومة.. و"الإيمان" لا يمكنه أن يبلغ تمامه، ويستوفي أقصى غاياته ومعانيه في مدة حياة واحدة على هذه الأرض مهما طالت هذه الحياة - بل لابد له حتى يأخذ مداه الأوسع والأعمق والأعظم من حياة أخرى أبدية غير زمانية، ترتفع فيها الحجب وتنزح الستر، وتصير الغيوب شواهد قائمة وحقائق منتصبة يراها المؤمن رأي العين ويلمسها لمس اليد..

أعمارنا إذن هي هذه الأنفاس التي تعلو وتهبط في صدورنا، وهي أنفاس معدودة ومحسوبة ومقدرة سلفاً، وكل نَفَسٍ هو جزء من عمرنا يغادرنا شاهداً علينا أو شاهداً لنا..

من هنا جاء إحساس "النورسي" بالزمن وشعوره الحاد بخطورة كل لمحة من لمحاته أو لحظة من لحظاته، لأن جزءاً عزيزاً من كياننا ينسلخ مغادراً وجودنا مع هذه اللمحة أو اللحظة..

وللزمن - بعد ذلك - طرائقه الخاصة التي يُنبّه بها الناسَ إلى مروره سراعاً، وأسلوبه الفريد في لفت أنظارهم الى اقترابهم من ساعة المغيب، ليأخذوا حذرهم ويتزودوا لرحليهم.. وفي لحظة حاسمة من تاريخ "النورسي" يبصر في المرآة شعرات بيضاء تغزو فوديه على حين غفلة قصيرة... فينتفض هلعاً ويحس وكأن الشعرةَ من هذه الشعرات إبرة مدببة توخز روحه وكيانه وتستحثه للمزيد من العمل في خدمة "الإيمان" قبل فوات الأوان..

فالزمن نفسه، أسحاره وأصباحه، وضحاه وظهيرته، وأصائله وأماسيه، عشاؤه وليله، هذه الأوقات رموز ومعانٍ لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان منذ أن تدب الحياة فيه وهو في رحم الأم وحتى يعود في خاتمة المطاف الى رحم الأرض أمّة الثانية الأخرى.. فهذه الأوقات هي إصداء الزمن الذي يصرخ بالإنسان منبهاً وموقظاً، وهي همساته في أذن الروح كلما انتابها كسل أو فتور، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى الصلوات - التي تمثل قمة الصحو واليقظة - في هذه الأوقات ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾(سورة الروم؛ 17-18)

فعالمنا في إطار الأوقات ساعة إلهية كبرى، عقرب ثوانيها الليل وضابط دقائقها السنون والأعوام وحاسب ساعاتها القرون والأزمان، وكل ميل أو عقرب فيها -كساعة الإنسان — يناظر الآخر - ويرتبط به، ويتحرك بحركته، ويأخذ حكمه.

والدين لكي يربطنا الى هذه الساعة الكبرى، ويلفت إنتباهنا إليها، ويجعلنا متيقظين لحركتها لا نغفل ولا نسهو، فرض لنا ضمن كل وقت من أوقاتها، وموسم من مواسِمِها نوعاً من أنواع العبادات، وشكلاً من أشكال التقرب الى الله، فالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها الكثير من فروض الطاعات ومندوبات الأعمال لها - ضمن هذه الساعة الكبرى - وقتها المعلوم وزمنها المخصوص.

يقول "النورسي" في حكمة الصلاة في أوقاتها المعلومة: تسألني - أيها الأخ — عن حكمة تخصيص هذه الأوقات الخمسة المعينة بالصلاة،

وسأشير الى حكمة واحدة فقط من بين حكمها الكثيرة:

1. وقت الفجر الى طلوع الشمس

يشبه هذا الوقت في نداوته، ورقة أنسامه، وعطر أنفاسه، باكورة الربيع وخضرة أيامه، وتفتح أزاهيره وأوراده، كما إن هطول نور الفجر الهادئ الأنوس على الأرض يشير الى أول نزول الروح الإنساني في رحم الأم، بدايةَ خلقه، ولأنه الخيط الأول من نهار جديد فهو يثير في النفس معنى اللحظات الأولى من اليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والأرض.

كل هذه الخواطر والأفكار تنبعث في نفس المؤمن مرة واحدة وهو يستقبل فجر يوم جديد، وفيقوم الى الصلاة داعياً متضرعاً طارقاً باستحياء باب رحمة القدير ذي الجلال، ومتمرغاً على أعتاب الرحيم ذي الجمال، عارضاً افتقاره عليه، طالباً التوفيق والعون منه سبحانه، فهذه الصلاة في باكورة يوم المؤمن الجديد هي ركيزة ثابتة يرتكز إليها، وسند يستند إليه ومشّيد يشدُّ ظهره ليقوى على تحمل ما يواجهه به يومه من أثقال الحياة، ومتاعب العيش في غضون النهار..

أليس -أيها الأخ- في إختيار هذا الوقت للصلاة حكمة عظيمة ما بعدها من حكمة..؟.

2. وقت الظهر

الظهر صيف يومه وشباب نهاره وعنفوان استوائه، وهو يومئ بشدة ضيائه ووضوح أنواره، الى ما في الروح الإنساني النازل الى الدنيا من الفطرة، وأنوار الأقباس الإلهية البكر التي لم تتلوث بعد بدخان الآثام، ولا ظلمات

الذنوب، ومع بلوغ النهار ذروته، وميلانه قليلاً الى الزوال، تتكامل أيضاً - أو تكاد أعمال الإنسان اليومية حيث يشعر بعدها بحاجته الى فترة استرخاء نفسي، ويحسّ بحاجة الروح اللاهثة الى التنفس والاسترواح، وافتقارها بعد هذا الانغمار بالشؤون الدنيوية الفانية وما تورثه - أحياناً — من غفلة واضطراب وحيرة - الى الانفلات من هذا كلّه، والتوجه بأشراقها الى ينابيع الخلود وعوالم البقاء. فخلاص روح الإنسان من تلك الأثقال، وإنسلالها من بين سحب الغفلة والحيرة وخروجها من تحت زبد التوافه والأباطيل في هذا الوقت من النهار، لا يتّم إلاّ بالتجاء الانسان وهروبه الى باب الحي القيوم الباقي بتضرع الملتاع، وتوسل الملهوف، فيقف بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاة الظهر مكتوف اليدين، واجف القلب، شاكراً حامداً لآلائه وأنعمه، متبرئاً من حوله وقوته مستعيناً به وحده، مظهراً - بركوعه - عجزه إزاء جلاله وكبريائه وعظمته، معلناً - بسجوده - ذله وخضوعه تجاه كماله الذي لا يزول ومسبحاً بحمد جماله الذي لا مثيل له ولا شبيه.

فما أشدّ حاجة الانسان في هذا الوقت الى هذه الصلاة التي تنعش روحه، وتذكر قلبه، وتوقظ وجدانه. أفلا ترى معي.. يا أخي - أن الصلاة هنا ضرورة من أعظم الضرورات في الإبقاء على يقظة الإيمان وحيويته في النفوس.

3. وقت العصر

ويأتي العصر منساباً بهدواته الهادئة، ولحظات سكينته الحالمة طاوياً في أساه العذب سر الآلام الإنسانية الكبري، وماسحاً بيده الآسية أوجاع

القلب البشري المتعب في حومة الكفاح – من اجل بقائه نقياً طاهراً – ضد قوى الشر في خفايا الضمير، وخبايا الوجدان هذا الكفاح المرير الذي لا يعلم سرّه الاّ الله سبحانه وتعالى.

ووقت العصر هو خريف اليوم المثقل بثمار الأعمال، جيدها ورديئها، وكهولة النهار المدلفة بهدوء الى شتاء العمر وهو يشير – بانحدار شمسه نحو المغيب – الى الحزن الوقور الآتي مع شيخوخة الإنسان والقادم في صحبة الجسد المهزوز العاجز الضعيف الذي يقول بلسان حاله: انظروا – أيها السادة – فإنّ كل شئ يحول ويزول، ويمضي الى عوالم الغيوب، وينحدر الى ما وراء الشهود.

وهنا ينتفض الروح الرافض المتمرد على الفناء، الساعي الى الخلود، التّواق الى الأبدية، ولأنه مخلوق لهما، فهو يعشق الثبات والبقاء، ويتألم من الزوال والفناء فيتحرك في المؤمن مهيباً به أن يقوم الى ضفاف الأبدية، وبحار السرمدية، ويلتمس البقاء من الباقي، ويحتمي من الفناء بالحيّ القيوم الذي يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن؛ 26-27) فيؤدي صلاته مستحضراً في ذهنه هذه المعاني التي تنسج لروحه في كل ركعة وسجدة ثوب بقائه ورداء خلوده.

ألا ترى – أيها الأخ الحبيب – بعد هذا الذي ذكرناه، كم هي صلاة العصر مناسبة لوقتها، وكم هي ضرورية في أوانها..؟

4. وقت المغرب

الشمس الصفراء الشاحبة تنحدر على مهل نحو المغيب، مخلفة وراءها ظلالاً باهتة، وأشباحاً ناحلة من صور الأشياء والمرئيات.

وكما تغيب الشمس – هذا النجم السماوي الكبير الممتلئ بالحيوية والنشاط – يغيب الانسان – هذا الجرم الأرضي العظيم – كذلك، عندما يحين أجله، وتدق ساعة مغيبه وهو لا يترك وراءه سوى أطياف ذكريات، وبقايا صور في ذاكرة أهله ومعارفه.

ويغرق الليل الدنيا، ويغمرها بالظلام كلّ مساء، وكأنه – وهو الليل الأصغر – يريد ان يذكرها فلا تنسى أبداً ذلك الليلَ الأكبرَ القادمَ في يوم ليلفَّها في يمِّهِ، ويطويَها – بما فيها ومَنْ فيها – بلجته...

ويهمس المساء ناصحاً في أذن الإنسان:

أترى – أيها الانسان – كيف يغرق غائصاً في ظلمة الليل كلّ شيءٍ تحبّه وتتعلق به، ألا تراه كيف ينفلت من بين يديك، وينسلّ من بين ناظريك، منطوياً تحت جناحه وضائعاً في ثنايا موجه.

فلا تغترّ بما تجد، ولا تفرح بما تكسب، فلا دوام لمطلوبات الدنيا، ولا بقاء لمحبوبات الحياة، فإياك والتعلّق بما يمكن أن تفارقه أو يفارقك وإياك والتشبث بالزائلات الفانيات من الأشياء.. بل تَعلَّق بالباقي تبقَ.. وتشّبث بالخالد تخلدْ.. وأحِبّ الحيّ القيوم تحيا.. وتشوّق الى الرحمن الرحيم تُرحَمْ.. وفي الظلمات استقبل قبلتك.. وأدّ صلاتك تتنورْ وتتضوأ مهما اشتد ظلام الدنيا من حولك أو اشتدت عتمة قبرك..

هذا هو معنى الصلاة ومغزاها في مستهل هذا الانقلاب الزماني الكبير، وفي أوان هـذا الإدلاج مـن عـالم النـور الى عـالم الظلام.. فمـا أعظـم – يـا أخي – حكمة فرض الصلاة في هذا الوقت، وما أجمل ما تؤديه للإنسان في هذا الأوان من أمن وسكينة واطمئنان...

5. وقت العشاء

ويـأتي العشـاء، هـذا الشـتاء الليلـي الـذي يتغّشـى بكفنـه الأسـود وجـه الأرض الميتتة معلناً بذلك عن موت يوم آخر من أيام الدنيا، ومضيه مثقلاً بأعمال البشر بكل خيرها وشرها الى حافظة الزمن، وعقله الدقيق الذي لا يفوته تسجيل كل صغيرة او كيرير وحـ فظها الى اليوم الموعود..

هكذا تمضي صحيفة النهار البيضاء، تجرر بقايا نورها، وتختفي وراء أفق السماء، وتُنْشَرُصحيفة الليل السواء مذكرة الإنسان – الذي كثيراً ما تنتابه الغفلة – بقدرة "مقلب الليل والنهار" و "مسخّر الشمس والقمر" كما هو شأنه – جلّ شأنه – عندما يطوي بساط الربيع الآخضر من فوق سطح الأرض ويستبدله بذلك البساط البارد المتثلج الأبيض أيام الشتاء المقرور.

فالجمع – في الخلق – بين المتناقضات، بياض النهار وسواد الليل، حرّ الصيف وقرّ الشتاء، حياة المخلوقات وموتها، من عمل واحد أحد، فرد صمد، لاحدّ لقدرته، ولا نهاية لإبداعات صنعته. وسجو الليل، وصمت سكينته وهدوات أنفاسه، يقربنا من حافات ذلك العالم الصامت الذي يثوي الأموات في صمته. ويجعلنا نسمع طرقات البلى، ومعاول الفناء على أسوار الدنيا وجدران العالم، حتى ليدوي في أسماعنا طنين الهلاك، ونحسّ في

أرواحنا عويل الدمار وأنين الأنهيار، ونصغي بقلوب واجفة الى ذلك النداء الأزلي: - "لِمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهّار".

المالك الحقيقي، والمتصرف الحقيقي بهذا الكون، بل المعبود الحقيقي، والمحبوب الحقيقي فيه، الذي يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف، والدنيا والآخرة، كما يقلب اي انسان - ولله المثل الأعلى - صفحات كتابه، أو يطوي سجلات كتبه.

فيتجلى عجزنا، ويبين فقرنا، وتنكشف حاجتنا الى مَنْ بيده انقاذنا من ظلمات المستقبل، وليل العالم الكبير، القادم قدوم كل ليل في آخرة النهار، فيفزع المؤمن في الوقت الى الصلاة، ويردّد مع سيدنا إبراهيم **ﷺ**: - "لا احب الآفلين" ويتقرب بصلاته الى باب منْ هو المعبود الذي كان وما يزال، وَمَنْ هو المحبوب في كل وقت وأوان، مناجياً الباقي السرمدي بعد خلعه للدنيا الفانية، وطرحه لهذا العالم المائل للانهيار في كل لحظة وراء ظهره خارجاً بذلك من ظلمة دنياه، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة مؤقتة، مقتبساً النور الذي يُضئ حياته، وملتمساً المرهم الذي يضمد به جراح قلبه النازفة، أسفاً على مَنْ زال من أحبائه وفراق مَنْ فارق من إخوانه ومعارفه، ساكباً عبرات قلبه، ولوعات صدره على عتبة باب تلك الرحمة، قائماً بوظيفة العبودية في خاتمة يومه قبل أن يخلد الى النوم، موته الأصغر الذي يجر به كل ليلة. والذي لا يدري ما سيؤول أمره فيه عندما يغمض عينيه، ويعقد الكرى أجفانه.. فتتهاوى عند أبواب النفس كل محبوباته الدنيوية، وتذوب في حرارة صلاته كل أهوائه ورغائبه الزائلة الفانية، ويتلاشى خوفه ويزول ذله، ويتحول الصغار في روحه إزاء السادة الدنيويين الى عزّ شامخ،

وإباء رفيع، لانه أمام من هو القديم الكريم، وماثل في حضرة مَنْ هو الحفيظ الرحيم.

فيفتتح صلاته بالثناء على رب العالمين الكريم الرحيم، الكامل المطلق الكمال، الغني المطلق الغنى، فيرقى الى مقام الضيف المكرم في هذا الكون، والى مقام الموظف المرمرق فيه، رغم ضعفه وفقره وعجزه، لأنه قد سما الى مرتبة الخطاب: – "إيّاك نعبد" فينتسب بذلك لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد. فيقدم بين يدي الله لله بقوله "إياك نعبد" و "إياك نستعين" عبادات واستعانات الجماعة الكبرى، والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات، طالباً له ولهم الهداية الى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل الى السعادة الأبدية بقوله: – "اهدنا الصراط المستقيم" ويتفكر ويتأمل في كبريائه وعظمته سبحانه وتعالى الذي ما هذه الشموس المستترة، وما هذه النجوم المتلألئة إلاّ جنود مجندة لأمره جلّ وعلا، وإن كل واحد منها ما هو إلاّ مصباح في دار ضيافته هذه، وخادم له مطيع لأمره فيكبر عندئذٍ قائلاً: – "الله أكبر" ثم يهوي راكعاً.

وإذا كانت الأكوان والعوالم، وإذا كانت السموات والأرضين، وما فيهنّ ومَنْ فيهنّ ما فتئوا ساجدين سجدتهم الكبرى، مسبحين تسبيحاتهم العظمى، فما أجمل أن يأخذ الانسان أيضاً مكانه في صف الساجدين على سجادة الغروب المبسوطة بين أقطار السموات والأرض، مكبراً مع تكبيرة الوجود لينال أجر صلاة الجماعة الكونية العظمى، ويحصل على شرف العبودية الممتثلة لأوامر مولاها..

فصلاة العشاء بهذا المعنى، وبهذا الفهم الشامل - هي معراج المؤمن، والتي يسمو بها، ويشاهد من عليائها آيات الله وأنعمه وآلائه.

تلك – يا أخي - هي حكمة الصلاة في هذه الأوقات التي هي منعطفات يومية، وانقلابات زمانية، لكل وقت وزمان منها نوع من أنواع فيوضات الرحمة، ولون من ألوان تجليات الأسماء الحسنى. فيبادر اليها المؤمن بصلاته حتى لا تخطئه بركاتها، ولا تفوته رحماتها.

الشجرة

في البذرة ينطوي ماضي الشجرة ومستقبلها، وعندما تورق شجرة ما وتتفتح أزاهيرها، وتنضج بعد ذلك ثمارها، فإنّ هذه الثمار ينبغي أن تتقدم بشكرها للبذرة نفسها، وللجذر الممتد عميقاً في باطن الأرض، وللجذع الذي حمل الأغصان ومرّ من خلاله النسغ الصاعد المحمَّل بالماء والأملاح من باطن الأرض لكل ورقة وزهرة وثمرة.

أما إذا ركب هذه الثمار الغرور، وأصابها العُجْبُ وتعالت شامخةً على أغصانها وتشبثت بحاضرها، وتنكرت لماضيها، وتناست أصلها وظنّيت – في غمرة خيلائها – أنها في غنى عن غذاء جذورها وخمائر جذعها فإنها تكون بذلك قد خانت نفسها. وإخترمت حياتها، وأوردت ذاتها موارد الموت والهلاك.

الإنسان أيضاً هو أنفس ثمار الوجود، وأجمل ازهار الكون، وأكثر أشجار الأرض طيبة، ورسوخاً وجمالاً وظلاً. تخضّر الأرض بإخضرار نفسه، ويخضلُ العالم بإخضلال روحه، ويندى الوجود بأنداء قلبه وتتفيأ الشمس نفسها بوارف ظلّه.

هذا هو الإنسان الكامل العارف الجامع –في لمحة– بين ماضيه وحاضره ومستقبله، النافذ ببصيرته الى جذوره وأصوله الموغلة في القدم.. والعالم بأنه بالمشيئة قَدِمَ العالَم، وبالقدرة نزل الأرض، ومن الحيّ استمد الحياة، ومن الخالق استوهب خَلقَهُ وقام يدبُّ على الأرض بشراً سوياً، وهو بالبصيرة

نفسها يُطِلّ على مشارف الأبد ويرنو الى ضفاف الخلود، ويهفو باشتياق الى عالم البقاء، وهو على ثقة ويقين بأنه بالباقي سيبقى، وبالخالد سيخلد، ومن الأبدي سينال الأبد ويحصل على الخلود.

فهذه النظرة الشمولية الجامعة - عند الإنسان المؤمن - هي التي تعطي سلوكيته في التعامل مع الآخرين روحاً نابضاً بالحياة، وحسّاً مرهفاً لا تحكمه ضرورات الأزمنة والأمكنة ولا تفرضه المصالح والمنافع الضيقة المحدودة.

فهو حين يصدق مثلاً، لا يصدق بدافع الضرورة ولكنه يصدق لأنه يجد في الصدق جمالاً تهفو الروح إليه، ويسعى إليه الوجدان ويطلبه الصدق الأعظم الذي به قام الوجود وعليه رسَتْ السموات والأرض..

وهو حين يحب، لا يحب لغرض، ولا يصطفي لمنفعة، ولكنه يحب لأن الحب هو الدم الذي يغذو عروق العوالم والأكوان، ويمد قلب الوجود بدفقات الحياة، ويمنح الزهرة سرّ الجمال، والفراشة سحر الألوان، والبلبل عذوبة التغريد، ويهدي القمر نوره الأنوس، والشفق الأحمر حمرته الهادئة، والفجر أنفاسه الندية، والجدول خريره الحزين، والقلب الإنساني جمال الشجن، والروح أسى الحنين الى عالم الحب والجمال والخلود في رحاب الآخرة ومنازل الجنة..

وهو حين يشجع ويكرم ويهَبُ المالَ والنفسَ، فإنه لا يفعل هذا من أجل أمجاد أرضية زائلة سيطويها الزمن يوماً ما ويعفي عليها الموت والعدم، ولكنه يكرُمُ ويجود لأنه راغب بالخلود، محب للكريم الأول والآخر الذي لا يرضى لعباده المؤمنين ثواباً وأجراً بأقل من الخلود وبأدنى من البقاء..

وعندما يضع روحه على كفّيه، ويعلو مصعداً في دروب الجهاد – من أجل الإيمان – حتى ينال الشهادة ويفوز بالميتة الحمراء الدامية، لا يقدم على البطولة من أجل قيل وقال، ولا من أجل أكف تصفق وحناجر تهتف، ولكنه يفعل هذا ليضع روحه الملفعة بالنجيع بين يدي الله واهب الروح الذي لا يرضى لها أن تَكْلَمَ إلاّ من أجله وفي سبيله.

وها هو "النورسي" مفتق المعاني، ومكتشف درر المعاني يتحدث في هذا المعنى فيقول:

أما الإنسان المنحصر في حلقة واحدة من حلقات الزمن وفي دائرة واحدة من دوائره وهي دائرة الحاضر – المنقطع عن الماضي والمبتوت الصلة بالمستقبل – فسوف تضيق نفسه بضيق زمانه، وتتحدد آفاق نظرته، ويدخل مرغماً في عنق الزجاجة الزمنية الضيقة الخانقة التي تسدّ منافذ المروءات في نفسه وتوصد أبواب المكرمات في وجدانه، وتتحول سجاياه الإنسانية الموروثة والتي لا تعرف الحدود، الى سجايا نفعية ضيقة، وأخلاق إنتهازية متلونة يعامل من خلالها الناس الذين يعاصرهم ويعايشهم وكأنهم كائنات زمانية محدودة بحدود هذا الحاضر الذي يوجدون فيه، وكأنه لا يعرف من أي ماضٍ تليد مفعم بالمكرمات قد أتوا، ولا إلى أي مستقبل سيلتقيهم في رحابه بعد انقضاء هذا الزمن الدنيوي مهما بدا طويلاً في ظاهر أمره.

وعندما ينظر الإنسان المحصور في دائرة الحاضر هذه النظرة الكليلة القاصرة، تتحول المحبة لديه، والتي هي منبع كل الفضائل البشرية – من كونها عنصراً من عناصر امتداد الإنسان في الأشياء من حوله، ونفاذه في

الكائنات الحيّة، وخلوده في البشرية التي سيلتقيها على أبواب الآخرة. الى مجرد عاطفة ضيقة يابسة، توريها المصلحة وتلهبها المنفعة، فتفقد بذلك حرارة الروح ونبض الوجدان، ودفء القلب الذي يعطي عطاءَ مَنْ لا يريد جزاءً ولا شكوراً..

وحتى محبته لأبيه أو زوجته أو ولده أو أمه، تغدو محبة يكتنفها الجفاف، ويعتورها اليبس لأنها لا ترتوي من ذلك الحنان الأصيل العميق الذي به ترقى المحبة الى مرتبة الخلود، وترتفع الى قمة الأبد، ولا يستطيع الموت نفسه أن ينال منها، لأن المحب قد أعطى من قلبه للخلود ووهب للبقاء، ولم يعطِ من أجل لحظة عابرة، أو لمحة خاطفة، لذا كان المتحابون في الله كما ورد في الحديث الشريف – على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء..

فالماضي والمستقبل هما عَصَيَا الإنسان وعكازتاه اللتان يتوكأ عليهما في مسيره عبر شعاب الزمن ومنعطفات التاريخ، فعلى قدر استيعابه لماضيه وجذوره وأصوله وخلفيات تأريخه المتصلة بما "قبل الزمن" والمرتبطة بمشيئة الغيب وإرادة القدر الإلهي..

وعلى قدر وعيه وقدرته على التأمل المستقبلي والإستحضار الدائم للخطات المآل والمصير والنفاذ ما وراء "الزمن" الى حيث "الأبد" الذي سترسو سفينة الإنسان على ضفافه في خاتمة رحلته.. أقول: على قدر هذا الاستيعاب للماضي، والوعي للمستقبل والمصير، تكتسب مسيرة الإنسان في هذا العالم خطْوَها الرصين، ومسيرها الهادئ الموزون على الصراط الذي يجنب الإنسان الإنحراف والضياع والشتات، ويمنحه النور الذي يبدد ضبابية

الفهم وعشوائية التصرف والسلوك.

أما الإنسان الذي يحدِّد نفسه بـ"الحاضر" وينغمس في لحظاته وساعاته، ويغرق في أمواجه ولججه، قاطعاً بذلك صلته بجذور ماضيه، واضعاً أصابعه في آذانه حتى لا يسمع نداء المستقبل، وهتاف الآتي، ومستغشياً ثيابه حتى لا يبصر لمعات الخلود، وبوارق الأبد، فهو إنسان يثير الإشفاق، لأنه قد اختار – دون مبرر– الكفر، وحكم على نفسه بالعذاب الأبدي في سجن الآخرة الرهيب..

إذن.. لماذا هذا العذاب الأبدي الذي تقشعر لهول تخيله –مجرد تخيله– الأبدان.. وترتعد له القلوب وتئن فزعةً –من مجرد تصوره– الأرواح..؟

يجيب "النورسي" على تساؤلنا هذا قائلاً:

لما كانت الدنيا هي مزرعة الآخرة، فالحقائق صغيرة كانت أو كبيرة، والأباطيل صغيرة كانت أو كبيرة، تثمر وتتسنبل في الآخرة.. فالكفر هذه البذرة السامة تشير هنا وتومئ الى شجرة "الزقوم" تلك وتقول: أنا أصل تلك الشجرة وخميرتها، فمن يحملني في قلبه من المنكوبين هنا –في الدنيا– فسأكون ثمرة خاصة له من تلك الشجرة الملعونة في الآخرة.

ومادام الكفر تعدياً على حقوق غير محدودة. وتجاوزاً عليها، فهو إذن جناية غير محدودة، لذا يجعل صاحبه مستحقاً لعذاب غير محدود.. فلئن كان القتل الذي يحدث في دقيقة واحدة يذيق القاتل خمس عشرة سنة من العذاب على الأقل أي ما يقارب من –ثمانية ملايين دقيقة– يعتبر موافقاً للعدالة البشرية، وعدته موافقة للمصلحة العامة وحقوقها فلا جرم أن دقيقة

واحدة من الكفر المطلق – على اعتبار أن الكفر يقابل ألف قتل – تقابل إذن بعذاب يقرب من "ثمانية مليارات من الدقائق" وفق تلك العدالة الإنسانية نفسها، فالذي يقضي سنة كاملة من عمره في الكفر، يستحق إذن عذاب "ترليونين وثمانمائة وثمانين ملياراً من الدقائق" فكيف بمن قضى عمره كله في الكفر؟. ألا يكون أهلاً لـ"خالدين فيها أبداً"؟.

لابد أن الخير واللذة والنور والجمال والإيمان وأمثالها تسيل الى الجنة، ويتساقط الشر والألم والظلام والقبح والكفر وأمثالها من الأمور المنكرة الى جهنم.. فتسيل سيول هذه الكائنات المتلاطمة الى ذينك الموضعين، وتهدأ ساكنةً عندهما في خاتمة الحياة الدنيوية..

* * *

أنت... أيها الاستاذ – شوق مذابٌ في قوارير الذكريات، وحنين دفّاق في جداول الأيام والسنين، وقلب – رغم قوته – يسيل حباً، ويتقطر لوعةً، وينسابُ إشتياقاً للماضي الظليل الذي إسْتَنْبتَّ في تربته درر أفكارك، وغرست في أرضيته شتلات روحك، واستزرعت في سواقيه حبات القلب والوجدان.. هاهي "الشجرة" –رغم كل الأنواء والأعاصير– تعلو وتسمو، وتخضر وتورق وتزهر وتثمر، بعد ربع قرن من الآلام والاحزان والدموع، وها هو "النور" – رغم كل أسداف الظلام – يتدفق وينساب غامراً الوهاد والبطاح نافذاً الى القلوب والأرواح، ليغلسها من عفونات الظلام ويطهرها من سموم الشكوك والأوهام..

وتبدأ "رسائل النور" المحظورة تأخذ طريقها الى المطابع ودور النشر بعد

استحصال قرارات البراءة بحقها من قبل مختلف المحاكم.. ونفرح بهذا العيد الإيماني الكبير – عيد رسائل النور– وهي تصافح العيون وتحتضن الأرواح.. ونحمد الله على هذا النصر العظيم.. وتشعر أن من حق ماضيك عليك أن تعودَ إليه بعض العودة، ومن الأماكن والمواطن أن تلمَّ بها إلمامة الزائر المشوق.. وترجع إليها رجوع من آلمه البعاد وهدته أوجاع الفراق.. فلكَ في كل بقعة حللت بها، وارتحلت منها جزء من نفسك وقطعة من كيانك.. وهل لك من نفسك شئ وهي موزعة كلها في نفوس تلامذتك ومعارفك ممّن التقيتهم في مختلف الظروف والمناسبات.. وهل لك من نفسك شئ وهي مقسّمة هنا وهناك بين الأماكن والمواطن التي كنت تنتقل فيها في سنوات نفيك وغربتك..؟.

وتبدأ رحلة العودة الى مواطن الذكريات، وتقف في محطاتها الواحدة تلو الأخرى وقفة التأمل والتفكير والإعتبار.. وتحث خطاك نحو "بارلا".. وتقترب من مشارفها.. وتقع عينك على حقولها وبساتينها.. فيخفق قلبك وتدمع عينك.. وتغص بالذكريات.. وتطفح المآقي بالعبرات.. ويتساكب الحنين... وتنساب الأشواق... ويصرخ روحك في غمرة وجده:

إيه "بارلا".. يا شقيقة الروح.. ورفيقة الفؤاد.. وبستان الفكر.. وحقل الأشواق.. ومستودع الآلام.. ومزرعة الآمال..

ها أنذا أعود إليك – بعد عشرين عاماً – لألتقي في ربوعك بعض نفسي.. ولأعانق في أجوائك مزع الروح وبقايا الوجدان.. فوق كل سفح وقمة وعند كل واد وحزن، وعلى كل شجرة وغصن وزهرة، وفي الشعاب والمنعطفات وبين الحقول والبساتين.

ويخرج أهل "بارلا" كلهم شباباً وشيباً، رجالاً ونساءاً وأطفالاً، يستقبلونك ويرحبون بك وقد هاجت بهم، الأشواق، وطفحت بهم المشاعر، فتدمع عيونهم فرحاً وتجيش عواطفهم محبة وإكراماً وتعظيماً..

وتمضي تشق طريقك بصعوبة بالغة بين جموع الأهالي الى دارتك الحبيبة التي أمضيتَ فيها ثماني سنوات كاملات.. تلك الدارة التي شهدت منابع فكرك الأولى.. وحملت معك أثقال أحزانك وآنست لوعة غربتك.. وهدهدتَ أوجاع وحشتك.. وضمت حناياها عليك في ظلمات الليالي وهدوات سكينتها وأنت غارق في تأملاتك أو وأنت في صلواتك وذكرك وتهجدك..

وتتثاقل خطواتك وأنت تقترب من بيت تلميذك القديم "مصطفى جاويش" وهو النجار الذي نجد لك تلك الغرفة بين أغصان الشجرة التي كنت تقضي فيها ساعات العبادة والتأمل في فصل الصيف..

وإذا بالبيت الحزين مقفر موحش بعد أن رحل صاحبه عن الدنيا يوم كنت منفياً في "قسطموني" وقفل كبير معلق على باب البيت وكأنه يقول:

أيها المارون.. مروا بسلام ولا تقتحموا أقفال الأحزان الكبيرة..

اتركوا أشجان هذا البيت المتفرد تنعم بالصمت والسكون..

وتشعر وأنت تقف امام البيت بجلال الآلام البشرية، وبجمال الحزن الصامت المهيب.. وتجهش بالبكاء.. وتغرق عيناك بالدموع..

ثم تمضي قلباً لهيفاً، وروحاً خافقاً ونفساً مولهة نحو تلك "الشجرة" الطيبة المباركة التي آوتك يوم عزَّ المأوى.. وضمتك بين حناياها يوم تجنبك الناس، وجافاك البشر، وظللتك أغصانها وأوراقها من حَرور الأيام وقساوة بني

الإنسان، وفرشتْ لك خضرة قلبها، ومنحتك ربيع نفسها في وقت كان شتاءً بشرياً رهيباً، يحيط بك من كل جانب، وصحارى إنسانية قاحلة جرداء تهبُ بسموم أحقادها عليك من كل مكان..

وتقترب لحظة اللقاء.. وتسير حتى إذا أصبحتْتْ في متناول يديك، إذا بك تميل عليها وتحتضنها إحتضان من يضمُّ إليه جزءً من نفسه، وقطعة من كيانه وتلتصق بها إلتصاق العائد الى حضن أمه بعد غياب طويل، وتتلمس جذعها وأغصانها وأوراقها بيدك وعينك وبكل جارحة من جوارح كيانك...

وتلصق بها وجهك المبلل بالدموع، وأنت تغالب دمعك، فلا تستطيع، وتخنق أزيز الحنين فيأبى عليك ويستعصي على رغبتك، فإذا بنشيجك يتعالى، وببكائك يرتفع.. ويرين على الحاضرين من حولك صمت خاشع وسكون أسيان..

وتصعد الى غرفتك وحيداً متفرداً كما صعدت إليها قبل عشرين عاماً... ويظلّ تلامذتك والناس معهم في مكانهم صامتين لا يريمون.. وتدلف الى معتزلك القديم وتظلّ فيه مدة ساعتين.. ويسمع الناس صوتاً حزيناً باكياً ينبعث من غرفتك، وأنت تستعيد ذكرياتك وأيامك التي أمضيتها فيها..

وتدمع أعينهم في صمت احتراماً لآلام النفوس العظيمة التي لا يسعها الكون نفسه، ولا يقدر على استيعابها واحتوائها غير رحمة اللّه..

الفصل الرابع

قراءات في فكر النورسي

أسماء وحروف

في ساعات التواصل الروحي، والتنافذ الفكري الوجداني، بين الانسان والوجود، في هذه الاوقات الصافية المتألقة، يقتربُ الانسان كثيراً عبر إنسياب ذاته من روح الوجود، حيث يحسّ بحرارة أنفاسه ويتّتّسمع لنبضات قلبه وخفقات وجدانه، وحين يصل الانسان هذه النقطة الخطرة من القرب والوصال ينتابه شعور طافح بالإنتشاء الروحي، فيتوهم — وهو في هذه السكرة – وكأنه قد صار هو والوجود شيئاً واحداً، وذاتاً متوحدة، وكياناً مندغماً، وأنَّ أحدهما قد نَفَذَ الى الآخر وحلَّ فيه، واتحدّ به.

صحيح أنَّ الإنسان "كلمة" في كتاب الوجود الكبير، هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه ملايين الملايين من الكلمات والنقط والحروف. وقد يكون "الإنسان" أعظم كلماته وأكبر موضوعاته، وأروع صفحاته ولكنه -على كل حال- ليس هو الكتاب نفسه، أو كل الكتاب.. لأن الكلمة مهما عظمت -وفي أي كتاب- حين تزعم أنها كل الكتاب، وأن كلَّ

الكتاب منطو فيها، تكون بهذا الزعم قد جانبت الصواب وجارت على الحق والعدل.

وكل "كلمة" في كتاب "الوجود" هي في الوقت ذاته حرف لا معنى له، إذا لم تأخذ مكانها المناسب بين ما يسبقها أو يعقبها من كلمات، ونقطة تائهة ضائعة في فضاء الوجود ما لم تجد موضعها تحت حرف من الحروف، أو فوق كلمة من الكلمات.

فالنمل والبعوض والذباب مثلاً، قد لا يكون لها معانٍ قائمة في ذواتها ولكنها تكتسب الكثير من المعاني والمغازي، إذا ما عُرِفَتْ أماكنها ووظائفها في هذا الكتاب الكبير، وكذلك قل في كل حيوان ونبات وجماد.

فالأرض منزل هذه البشرية، حرفٌ لا معنى له ما لم تمنحها الأكوان والعوالم معناها.. والأكوان والعوالم نفسها حرف لا معنى له ما لم يمنحها معناها الوجود الأعظمُ والأكبرُ.. والوجود نفسه على سعته وإحاطته وشموله حرف لا معنى له ما لم يعطه الله سبحانه وتعالى المعنى الذي يريد والمغزى الذي يشاء.

والإنسان نفسه – وهو محصلة هذا الوجود – حرف لا معنى له ما لم يكتسب معنى وجوده ومغزى خلقه من الله سبحانه وتعالى.

أما "اللّه" جل جلاله فهو وحده "الإسم الأقدس" القائم معناه بذاته، الغني بنفسه الذي لا يفتقر وجوده – جلّ وعلا – لأحد، وكل أحد سواه يفتقر إليه ويحتاج لعونه ورحمته وإحسانه فالوجود الحقيقي هو "الواجب الوجود" وحده، وكل موجود آخر إنما يستمد وجوده منه ويتناول ماهيته من

عنـده. والإنسـان خـلال مجاهـداته ورياضـاته الروحيـة للوصـول الى "واجـب الوجـود" قـد يغيـب عـن ذكـره وفكـره ذوات جميـع الأشـياء، الاّ ذاتـه، ويظـلّ يطلبُ الفناء عن نفسه حتى ينال ذلك، وتغيب عـن ذكره وفكره السموات والأرض ومـا بينهمـا، ويتلاشى "الكـلّ" ويضـمحل ويصـير هبـاءً منثوراً. ولا يبقى إلاّ "الواحد" "الحق" "الموجود" "الثابت الوجود".

فالقضية الى هـذا الحدّ لا بأس بها ولا خطر منها، ولكـن الخطورة حين ينزلق الإنسان، وينساق مع مغريات الفكرة وموحياتها الشعرية والجمالية، فلا يرى فيما يحيط به من موجودات، سوى أوهام وخيالات وأشباح وظلال لا وجود لها، ولا حقيقة لماهيتها وصورها، وأن الشئ الذي كان يظنّه أولاً أنه ذاته المغايرة لذات "الحق" ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس من شئ إلاّ ذات "الحق" وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فأنه وإنْ نُسِبَ الى الجسم الذي ظهر فيه، فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وان زال الجسم زال نوره، وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسسم، ولم يزد عند مغيبه.[2]

هـذه هي فكرة "وحدة الوجود" عرضناها عرضاً موجزاً ومبسطاً، وهي الفكـرة الـتي شـغلت ومـا زالـت تشـغل أذهـان المفكريـن والمتصـوفين علـى اختلاف مذاهبهم ونحلهم وأديانهم، وقد سئل الأستاذ "النورسي" عنها بما يأتي:

سؤال: إن مسـألة "وحـدة الوجـود" تعتـبر مـن قبـل الكثيريـن مـن أرفـع المقامـات، بينمـا لا نشـاهدها عنـد الذيـن هـم مـن أعـاظم الأوليـاء وفي

[2] أنظر: "حي بن يقظان" لابن طفيل.

مقدمتهم الخلفاء الراشدون، والصحابة الكرام، وآل البيت والمجتهدون من الأئمة الاربعة والتابعين، فهل الذين أتوا من بعد هؤلاء اكتشفوا طريقاً أسمى وأرفع؟ وهل سبقوهم في هذا المضمار؟..

الجواب: كلاّ... وحاشا أن يكون الأمر كذلك، فليس في مقدور أحد أن يصل الى مستوى أولئك الأصفياء الذين كانوا أقرب النجوم اللامعة الى شمس الرسالة وورثتها، فضلاً عن أن يسبقوهم فالصراط المستقيم انما هو طريقهم.

أما "وحدة الوجود" فهي مشرب ونزعة وحال، وهي مرتبة ناقصة، ولكنها لكونها مشربة باللذة والنشوة، فإن الذين يحملونها أو يدخلون اليها لا يرغبون في أكثر الاحيان مغادرتها، فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطالها أفق.

لذلك فإن صاحب هذا المشرب إن كان من الدين تجردوا من المادة ومن وسائلها، ومزقت روحه ستار الأسباب، وأصبحت منهمكة في لجة الإستغراق، ولكن لا عن طريق "وحدة الوجود" بل ربما عن طريق وحدة "الشهود" الى مرتبة معينة من مقام الكمال الناشئة عن طريق "وجداني" لا عن طريق "علمي" وقد يصل به الحال الى انكار وجود "الكون" عن تركيز انتباهه في جود الله.

أما إن كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم "المادة" وأسبابها، فإن نزعته هذه في "وحدة الوجود" قد تؤدي به الى إنكار "وجود الله" سبحانه وتعالى، لكونه غارقاً في "الوجود الكوني" بكل أفكاره وأحاسيسه.

نعـم، إن "الصـراط المسـتقيم" هـو طريـق الصـحابة والتـابعين والأصـفياء الـذي يـرون أن حقـائق الأشـياء ثابتـة، وهـي القاعـدة الكليـة لـديهم، وهـم الذين يعلمون ان الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو الإعتقـاد بـ"ليس كمثلـه شـئ" أي أنـه منـزه عـن التشـبيه والتحيـزّ والتجـزء، وإن علاقتـه بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات.

فـالموجودات ليسـت اوهاماً كمـا يـدعي أصـحاب "وحـدة الوجـود" فهـذه الأشـياء الظـاهرة هـي مـن آثـار الله سـبحانه وتعـالى، إذن فليـس صـحيحاً قولهم: -لا موجود إلاّ هو- وانما الصحيح: -لا موجود إلاّ منه-، ذلك لأن الحوادث لا يمكن أن تكون نفس القديم، أي "أزلية".

وهكـذا فـإن -سـلطنة الألوهيـة- تقتضـي وجـود أسمـاء حقيقيـة متعـددة أمثـال: "الرحمـن، الـرزاق، الوهّـاب، الخلاق، الفعـال، الكريم، الرحيـم" وهـذه الاسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها.

والآن ما دام اصحاب "وحدة الوجود" يقولون: لا موجود إلاّ هـو، وينـزلون الموجـودات منـزلة العدم والخيـال، فـإن اسماء الله تعـالى أمثـال: "واجـب الوجـود، الأحـد، الواحـد" تجد مجالها وإنعاكسـها هنـا. ولكـن أسمـاءِ الله الحسـنى الأخـرى أمثال: "الرحمن، الرزاق، الجبار، الخلاق" لا تجد تجلّياتها الحقيقية هنا، بل تصبح اعتباريـة وإضـافية، بينمـا هـذه الأسمـاء هـي أسمـاء حقيقيـة، ولا يمكـن أن تكـون ظلاً، وهي أصلية ولا يمكن أن تكون تابعة.

وهكـذا فـإن الصـحابة والمجتهـدين الأصـفياء وأئمـة أهـل الـبيت، عنـدما يشـيرون الى أن "حقـائق الأشـياء ثابتـة" يقـرون بـأن لجميـع الأشـياء وجـوداً

-وإن كان عرضياً- أسبغه الله عليها بالخلق والإيجاد. ومع أن هذا الوجود يعتبر وجوداً عرضياً وضعيفاً وظلاً غير دائم بالقياس لوجود واجب الوجود إلا أنه ليس وهماً وليس خيالاً فأن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء "صفة الوجود" بتجلّي اسمه "الخلاّق" وهو يديم هذا الوجود.

لنفرض أن في هذه الغرفة أربع مرايا جدارية كبيرة موضوعة على جدرانها الأربعة، فصورة الغرفة سترتسم على كل مرآة من هذه المرايا، ولكن كل مرآة ستحتوي على صورة الأشياء بالشكل الذي يناسب وصفها ولونها، أي أن كل مرآة ستحتوي على منظر خاص للغرفة.

فاذا دخل رجلان الى الغرفة، واطلع أحدهما على إحدى هذه المرايا فانه يرى جميع الاشياء، مرتسمة هناك وعندما يسمع بوجود مرايا أخرى وما فيها من صور، فإنه يعتقد بأنه نفس صور المرايا التي تنعكس على مرآته والتي تشغل حيزاً ضئيلاً منها بعد ان تضاءلت صورها وتغيرت فيقول: إنني ارى الصورة هكذا. اذن فهذه هي الحقيقة.. يقول الرجل الثاني: نعم إنك ترى ذلك، وإن ما تراه صحيحاً، ولكن ليس هو في الواقع صورة الحقيقة نفسها، فهناك مرايا أخرى غير المرآة التي تحدق فيها، والمرايا الأخرى ليست صغيرة وضئيلة ومنعكسة من الظلال كما تراها في مرآتك.

وهكذا فإن كل اسم من اسماء الله يتطلب مرآة خاصة به على حدة، فمثلاً إن الاسماء الحسنى أمثال: -الرحمن الرزاق- لما كانت أسماء حقيقية وأصلية فإنها تتطلب موجودات لائقة لها، ومخلوقات محتاجة فعلاً الى الرزق والى مثل هذه الرحمة.

فكما يتطلب اسم "الرحمن" مخلوقات حيّة محتاجة الى الرزق في عالم حقيقي، فإن اسم "الرحيم" يتطلب جنة حقيقية. لذا فإن اعتبار اسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال -الموجود، الواحد، الأحد، واجب الوجود" هي الأسماء الحقيقية فقط وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظلاً لها حكم غير عادل يتنافى مع ما يجب لهذه الأسماء من تقديس وخشوع واحترام.

اذن فالصراط المستقيم، وصراط الولاية الكبرى. إن هو إلاطريق الصحابة والأصفياء والتابعين وأئمة اهل البيت والائمة المجتهدين، وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأول للقرآن الكريم.

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (سورة آل عمران؛ 8)

اللّهم صل على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

القوة و الضعف

ايّهما القوى وأيهما الضعيف... الأم أم رضيعها.. اللبوة أم شبلها.. والدجاجة أم فرخها..؟ واذا كانت القدرة على التأثير في الآخرين، وتحريكهم في خدمتنا، والاستحواذ على ما عندهم من نفع لدينا هي واحدة من عناصر القوة ومعانيها فكم يكون في "ضعف" الرضيع من القوة ما يجعله قادراً على تفجير ينابيع الرحمة والحنان في صدر أمّه...؟ وكم هي القوة التي ينطوي عليها دلال الشبل عندما تأتيه أمّه بالطعام بينما تبقى هي تتضور جوعاً...؟ وكم يبدو الفرخ في "ضعفه" وصغره قوياً وكبيراً حيث يمنح جناح أمّه من القوة ما يجعلها تنافح عنه انقضاض البزاة والعقبان ولو كان في ذلك هلاكها...؟..

اذا قُدّر للبشرية أن تتجنب في المستقبل حرباً نووية شاملة، فلن يكون الفضل في ذلك لحكمة القادة السياسيين، أو رجاحة عقل القادة العسكريين، وانما الفضل الذي ستذكره البشرية بالامتنان سيكون للطفولة البريئة العاجزة الضعيفة التي ما زالت تصرخ بلسان الحال:

الرحمة.. الرحمة.. لا تجعلوا من أجسادنا -نحن الأطفال- شواءً لقنابلكم النووية.. إن دموع الأطفال، ونواح الثكالى، وأنين المتألمين، وصرخات المعذبين، وأوجاع المرضى.. وغيرها وغيرها من سلسلة الآلام البشرية التي تملأ الدنيا وتغطي الأرض ليست بالتالي هي النقيض لفرح الأقوياء الذين لم يعرفوا الألم، ولم يجربوا الدموع..

لا.. ليس الأمر كذلك ولا هو من سنُن الحياة ونواميس الوجود.. فالقوة مهما تعاظمت وكبرت واتسعت فهي تحمل في أعماقها بذور ضعفها... والضعف مهما تهاوى وتضاءل وانطوى على نفسه فهو يحمل في جوفه بذور قوته، ونواة شموخه وعظمته.

فكم من جبّار تهاوى صريعاً وهو في أوج جبروته وعظمته وكم من حضارات انهارت واندثرت وهي في قمة مجدها وعنفوان قوتها..

ألم يتعهد "فرعون" القويّ المتألّه "بذور ضعفه" وهلاكه يومَ احتضنَ "موسى" عليه السلام طفلاً رضيعاً وربّاه في حجره؟...

وبلال في ضعفه وفقره وعريه، وهو ملقى على رمال الصحراء اللاهبة في رمضاء مكة، تدمي ظهره السياط، وتأكل ألسنةُ الشمس اللاذعة من لحمه، ألم يكن أقوى من كلّ أعدائه الأقوياء لأنه بـ(أحد.. أحد.. أحد..) كان يهزّ ضمير الكون ويرجُّ قلب الوجود، فتتسارع إليه قوى الأرض والسماء بالمساندة والتأييد والتثبيت.

ومحمد **ق** في موقفه ذاك الحزين، وقد ردّهُ عظماء الطائف وسادتها، ذلك الرّد الشنيع وأغروا سفهاءهم وصبيانهم به يرجمونه بالحجارة، ويحصبونه بالحصباء، فيَلتجئ الى بستان من بساتين "الطائف" ويجلس تحت شجرة من أشجاره متعباً منهوكاً، ألم تكن قوى العوالم والأكوان معه وهو يهتف بكل قلبه: "إنْ لم يكن بكَ عليّ غضبٌ فلا أبالي" فيعرج به الى السموات العُلى في ضيافة الرحمن الرحيم، فيمسح أحزانه، ويواسي أشجانه، ويمنحه من فيوضات كرمه مالاً عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر.

وإبراهيم عليه السلام وهو يهوي الى نار "النمرود" ألم يكن أقوى منه ب–عليمٌ بحالي، غنيٌ عن سؤالي– نعم، ان الانسان المغلوب أمام العقرب التي ليست لها عيون، وأمام الحيّة التي تدبّ على بطنها من دون أرجل، ليست قدرته هي التي ألبسته الحرير من دودة صغيرة، وأطعمته العسل من حشرة سامة، وإنما ذلك ثمرة ضعفه الناتجة منه، تسخير ربّاني، وإكرام رحماني.

فيا أيها الانسان:

ما دامت الحقيقة هكذا، فدع عنك الغرور والأنانية، وأعلن أمام باب الألوهية عجزك وضعفك بلسان الإستمداد، وفقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء. وأظهر بأنك عبدٌ لله خالصاً قائلاً: (حسبنا الله ونعم الوكيل) فارتفع وارتقِ في مدارج العُلا، ولا تقل: –انا لست بشئ وليست لي أهمية تذكر حتى يسخر لي هذا الكون – من قبل الحكيم المطلق – عن قصد رعناية، وحتى يطلب مني الشكر الكلي–.

لأنك وإن كنت بحسب نفسك وصورتك الظاهرية في حكم اللاشئ. إلاّ أنك بحسب وظيفتك ومنزلتك، مشاهد فطن ومتفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وإنك اللسان الناطق البليغ الذي ينطق باسم هذه الموجودات الحكيمة وإنك القارئ الداهي والمطالع النبيه لكتاب العالم هذا، وإنك المشرف المتفكر على هذه المخلوقات المسبّحة، وإنك بحكم الاستاذ الخبير، والمعمار الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة.

ويمضي الاستاذ متحدثاً عن قوة الإيمان:

إن الإيمـان نـورٌ وهـو قـوة أيضـاً، نعـم فالإنسـان الـذي يظفـر بالايمـان الحقيقـي يسـتطيع أن يتحـدّى الكائنـات ويزيـح عـن كـاهله أعبـاء الحيـاة، مستنداً الى قوة إيمانه، فيبحر على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان والسلام قائلاً: "توكلت على الله"، لأنه يسلم تلك الأحداث الحياتية الرهيبة، وتلك الأعباء الثقيلة أمانة الى يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك جسر حياته مطمئن البال، وفي سهولة وراحة حتى يصل الى البرزخ ويستريح.. ومن ثُمّ يرتفع من هناك طائراً الى الجنة للدخول الى السعادة الأبدية هناك.

أما اذا ترك الإنسان التوكل، فلا يمكنه أن يتمتع بالقاء أعباء الحياة عن كاهله الضعيف، بل ستجذبه الدنيا الى أسفل سافلين، فالإيمان اذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود الى التسليم والتسليم يحقق التوكل والتوكل يسهل الطريق الى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كلّياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب ما هي إلاّ حجب يد القدرة فينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبث بها، أو الأخذ بها، فهو نوع من الدعاء الفعلي ويجب اعتباره هكذا، ومن ثمّ فطلب المسببات وترقب النتائج لا يكون إلاّ من الحق سبحانه وتعالى. وإن المنّة والثناء لا ترجع إلاّ اليه وحده".

البلبل

"نعرض هنا إحدى روائع "النورسي" الأدبية التي ترقى به الى مصاف الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه القطعة يرتفع الى القمّة التي ارتفع إليها شاعر الصوفية الأكبر مولانا جلال الدين الرومي".

أيها البلبلُ الغريد.. يا ملك اللحن والغناء.. يا صنّاجة الطير وقيثارة الغاب.. تَغَنَّ يا عاشق الأزهار.. ففي صوتك الشجيّ ظمأ الطير كلها الى جمال الحياة وأفراح الوجود...

أنتَ رسول الأطيار، وسفيرها السامي الى "الزهرة" ملكة النبات وأميرة الحقول والبساتين والغابات لتبثها — باسم كل ذي جناحين - رسائل الود والعشق والمحبّة.. وتعلن لها -بلسان الطيور- الشكر والإمتنان لمملكة النبات على ما تهديه من أرزاق وأقوات لضيوف الرحمن على هذه الأرض.. تنتقل من فن الى فن، وتطير من زهرة الى أخرى جذلان منتشياً، وتنظر بعين الشكر الى هذه الأرزاق المسوقة لأبناء جنسك، وهذه الأقوات المهداة من خزائن الرحمة الألهية الى الأفواه الجائعة، والمعدات الخاوية، فيستخفك الفرح، ويهزك الكرم الإلهي العميم فتصفق بجناحيك الصغيرين، وتطلق باسم كل طير وحيوان أصوات الترحيب والتهليل، وترسل ألحان الحمد والشكر والثناء..

وتَغمُرُ زهرتَكَ بفيض حبّك، ومُذابِ عشقكَ، ويتساكبُ وجدُكَ كأنداء السحر فوقَ وجهٍ هو ألطفُ الوجوه وأرقها... وتنساب قُبُلاتُ فؤادك على ثغر هو أشهى الثغور وأعذبها.. وتدلفُ الى محاريب الطّهْر والنقاء حيث العذارى من أزاهير الروض وقد غدونَ شفاهاً مسبّحة، وقلوباً ولهى ذاكرةً فَتُلَمْلِمُ من فوق الشفاه تسابيحَهُنَّ، وتجمع من بين الضلوع ذِكرهنّ، ثم تمضي بصوتك العذْبِ الحنون تسبّح عن كل زهرة وتذكر بلسان كل وردة على عتبةِ مُسقمّ الأرزاق، ومالك الملك.. وعند باب الرحيم ذي الجلال والإكرام.

هذا بعض ما نَستَشِفُهُ من ألحانك - أيها البلبل العزيز - وبعض ما نحدسه من تغاريدك.. وربّما أنت تقول أشياء أخرى لا نرقى الى فهمها، وتودعُ أذُن الكون رسائل لا ندرك كُنهها، ولا نعلم سرّها.. وربّما أنت نفسكَ لا تفهم مقاصد ما تؤديه، ولا تدرك مغازي ما تفعله، ولكنك — رغم ذلك– سعيدٌ بعملكَ، مبتهجٌ بواجبك.. أما الملائكة والروحانيون المبثوثون في أرجاء الكون، فإنهم أقدر منّا ومنك على فهم ما تقول، وعلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك، وينقلون أحاديثك الى الله سبحانه وتعالى.

فجهلك يا بلبلي العزيز –إن كنتَ جاهلاً– بهذه الغايات والمقاصد لا يعني عدم وجودها، فأنتَ كالساعة تشير الى الزمن، وتعلّمنا الوقت ولكنها لا تعلم هي ما تفعل..

فاعتَصِرْ لذاذاتِ عملك من جمال الأزاهير، وتناول أذواقَ قَلبكَ وروحكَ من أحاديث الورود، وتمايلهنّ على الغصون، وأبثُثْ ما شئتَ من أحزانٍ

بين أيـديهنّ، فنغماتـك مهمـا بـدت، حزينـةً شـجيّةً فهـي ليسـت شـكاوى وآلاماً بقدر ما هي شكر وثناء وحمدٌ لعطايا الرحمن وآلائه.

ولا يذهبنّ بك الوهم -أيها الأنسان- فتحسبُ أن "البلابل" هي لعالم الطيـور وحـدها، وأن أنواعـاً أخـرى مـن مخلوقـات الله لا تعـرفُ مَـنْ يسـبّح باسمها، ويرفع آيات الشكر والحمد لبارئها، فلكل صنفٍ ونـوع بلبله الخاص بـه، وحـتى العنـاكب والنمـل والنحـل لهـا بلابلهـا الـتي تلحـن تسـابيحها، وتغـردُ أشواقها ومواجيدها، وهي بالوقت نفسه لها هداياها التي تحصل عليها من خلال عملهـا، مـن المتع الذوقية والجمالية التي تدفعها للجدّ في أداء واجبها في خدمـة الصـنعة الربّانيـة، مثلهـا في ذلـك مثـل القبطـان الـذي يقـود سـفينةً سلطانيةً في عرض البحار، فإنه زيادةً على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة الدولة، فهو يستمتع ويلتذ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له أثناء إبحاره وتطوافه بين الضفاف والشواطئ.

وهكـذا فلكـل نـوع مـن أنـواع الكائنـات بلبلـه الـذي يلتقـط مـن مجـاميع النـوع الـذي يمثّله ألطفَ حسيّاتِهِ، وأرقّ مشـاعره، وأعـذب مواجيـده ثم يغـرد بها ويشدو، ويسجعُ ويُنْشِد، فما من أذُنٍ في هذا العالم وما من سمعٍ في هـذا الكـون إلاّ ويلتقـط مـا يناسبه ويلـذه مـن هـذه الألحـان والتغاريـد مـن أصـغر الحيوانات الى أكبرها.. وقسمٌ من هـذه —البلابل- ليلية التغريد، فهي تُنشِدُ قصائدها في دواوين الليل السـاجي، فتحرك بهذا النشيد في هـدوات الليـالي مكنونـات القلـوب، ومشـاعر الأرواح، تماماً كمـا يفعـل الأقطـاب والمرشـدون في تحريك الذاكرين، وتنشيط المتكاسـلين من الـدراويش والمريـدين في حلقـات الذكر.

وعندئذٍ يبدأ الجميع – كلٌّ بلغته الخاصة وعلى قدر حاله – بذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع.

إذن فكل نوع من أنواع الموجودات – وحتى الأفلاك والنجوم – لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها، وبلبلها الذي يلحنُ في عتمة الفضاء الوسيع أنوارها ويغرد أضواءَها.. ولكن، أتدرون مَنْ هو بلبل البشرية وعندليبُها، وصاحب مواجيدها واشواقها، وحاملُ آلامها وآمالها، والهاتفُ بصوت عقلها وقلبها...؟

إنّه أفضل بلابل الكون وأشرفها.. وأعذبها صوتاً وأعلاها نداءً وأرقها مشاعر وألطفها حسّاً... وهو ألمع بلابل البشرية من الأنبياء والمرسلين نوراً، وأتمّهم ذكراً، وأعظمهم شكراً وأكملهم ماهيةً وأجملهم وأبهاهم صورةً.. ذلك الذي كلّ الكون بستانه.. وكل الوجود زهرتُه.. وكل الموجودات أغصانُه.. وكل البشرية أورادُهُ.. والأرض والسموات.. روضه باعث الأشواق الى الله.. وحادي القلوب والأرواح الى بارئها.. المغرد بالقرآن، والصدّاح بآيات الله محمّد بن عبد الله.

الانسان الكامل

في داخل كل إنسان صوت يدعوه للارتقاء في مراقي الكمال، وهاتف يهتف به للتصعيد في مدارج البطولات النفسية، والارتفاع فوق ضغوط الهبوط، والتسامي على الضعف البشري الذي يشدّ الإنسان بقوّة الى عجلة النقائض، ويجذبه الى الزوايا الضيقة المعتمة من الطينة البشرية الأولى. ورغم ذلك فإن تجربة الإرتقاء هذه قد تتعرض للكثير من المخاطر في عالم يموج بالفتن والمغريات، ويضطرب بالنقائص والآثام.

لذا فقد حثّ الإسلام "المؤمنَ" على مجاهدة النفس، والانتباه جيداً الى المنزلقات وحافات السقوط التي قد تعترض طريقه، واعتبر ذلك جهاداً أكبر لا تقل أهميته وخطورته عن مجاهدة الأعداء والخصوم، لأن الانتصار على "النفس" وامتلاك ناصيتها هو أولى مراحل الانتصار على الأعداء.

ومع ذلك فقلّما يستطيع "الفرد المؤمن" بطاقاته وحدها أن يستكمل عناصر البطولة الإيمانية ويستوفي كل أصولها وشروطها، فقد يتعثر هنا وهناك، وقد يسقط مرة ويقوم أخرى، فهو في حاجة دائمة الى "الكل" الذي يقيل عثرته، ويسدد خلله، ويسند ظهره، ويرفعه معه عندما يحس بالانهيار ويشعر بالتهاوي، ولذلك اعتبر الإسلام "المجتمع الإيماني" جسداً واحداً، وكياناً موحداً حيث يدخل "الواحد" في "الكل" يرتفع بارتفاعه، ويتهاوى بتهاويه، ويصبح "الكل" في "الواحد" يمدّه بقوته ويمنحه من

عـافيته، ويحقـق لـه مـا يعجـز عـن تحقيقـه بمفـرده، ويصـل معـه الى العظمـة الإيمانية التي يطمح إليها كل مؤمن طوال حياته.

فالأنبيـاء مـن لـدن آدم **گ** حـتى يـوم محمـد **ق**، وإن كـانوا أفـراداً في المجتمعات - مهما كبر هذا المجتمع أو صغر - إلا إنهم يحملون من كليات الكمال الإيماني ما يسع المجتمع كله فهم ليسوا أفراداً لأن كل واحد منهم يستجمع في ذاته توق البشرية وأشواقها الى العظمة الإيمانية، والقمم العالية للحق والخير والجمال.

وحتى عندما يغيب "النبي" يظل دائم الحضور برسالته، وتظل رسالته هي "الكـلّ" في المـؤمن الواحـد، ويظـل "المـؤمن" هـو الواحـد الـذي انـدغم في "الكل"، ويبقى المجتمع الإيماني هو "الواحد" بالنسبة الى "النبي" و "الكل" بالنسبة الى "الفـرد المؤمن" فـالمجتمع الإيمـاني -بهـذا الاعتبـار- هـو الإنسـان المعنوي الكامل الذي يستوفي الفرد من خلاله حالاته النفسية، ويستكمل في ذاته الكبيرة -ما يتعذر عليه- بمجهوده الفردي من فضائل، لأن هذا المجتمع كما يقول "النورسي": -جسد واحد وذات موحدة فكما أنه لا تحاسد بين اليدين، ولا تباغض بين العينين ولا يبخس اللسان حق الأذن، ولا يتحسس القلب عيب الروح، وإنما يكمل كل منها نقص الأخر ويستره ويعينه على حـاجته وتحقيـق أربـه.. وإلاّ انطفـأت حيـاة الجسـد الإنسـاني وغـادرته الـروح وأصابه التمزق والانحلال....

وكما أنه لا حسد بين تروس المعمل الواحد ودواليبه، ولا يتقدم بعضها على الآخر، ولا يتحكم أحدهما بالآخر ولا يثبط أحد همّة الآخر، أو يثنيه عن سعيه وشوقه الى العمل، إنما يعاون كل منها الآخر بكل ما عنده من

طاقة وقابلية موجهاً حركات التروس والدواليب الى الغاية النهائية، فيسير الجميع الى ما خلقوا له، بالتساند التام والاتفاق الكامل.

فلو وقع تداخل أو اختلاط في العمل أو تحكم -ولو بمقدار ذرة- فإن المعمل سيختل ويقف عن العمل، فكذلك -أفراد المجتمع الإيماني- الذين هم أجزاء وأعضاء لشخص معنوي جدير بأن يطلق عليه اسم "الانسان الكامل" وهؤلاء الأفراد بمثابة التروس والدواليب لمعمل ينتج السعادة الأبدية في حياة خالدة، وهم خدام عاملون في سفينة ربّانية تسير بهذا المجتمع الى ساحل السلامة.

وحكمة سر الإخلاص والتساند بين أفراد المجتمع تظهر واضحة في المثال الآتي:

إنّ مجتمعاً متضامناً مكونّاً من عشرة أشخاص، فإن كل فرد فيه يمكنه ان يرى بعيون سائر إخوانه، ويسمع بآذانهم، أي كلاً منهم له من القوة المعنوية وكأنه ينظر بعشرين عيناً ويفكر بعشرة عقول، ويسمع بعشرين أذن، ويعمل بعشرين يد.

وحتى حينما يرتفع الفرد في هذا المجتمع التضامني الى قمة "الشهادة" فإنه يرتفع اليها دون خوف ولا وجل ولا تردد، لأن الموت لا يسلب منه إلاّ روحاً واحدة فقط، ولكنه يظلّ في أرواح إخوانه الآخرين، فيلقى الموت مبتسماً ولسان حاله يقول: لتسلم أرواحي الآخرى، ولتبق معافاة فإنها تديم لي حياة معنوية في تجارب الأحياء من إخواني وأنا أعيش بتلك الأرواح وأخلد فيها....

محمد ﷺ و الكون

أيهما أسبق حضوراً إلى العقل، وأسرع حلولاً في التصور والخيال، الغاية؟ أم الوسيلة؟.. وهل الغاية تلد الوسيلة، وتحفز حضورها، أم الوسيلة هي التي تستولد الغاية وتمنحها روح التمكن والتحقق؟

وهل يمكن للوسيلة أن تعقل –مسبقاً– القصد والهدف، أم أن القصد والهدف هما اللذان يختاران وسيلة تحقيقهما؟.

التجربة الإنسانية والمشاهدة الميدانية، ومنطق الحياة، تعلمنا كلها أن الغايات هي الأساس والأصل وأن الوسائل تبع لها، دائرة معها حيث تدور وسائرة معها حيث تسير.

وتظل "الوسيلة" عدَماً لا وجود له حتى تأتي "الغاية" وتمنحها الحياة والوجود، فإذا انعدمتْ "الغاية" واختفتْ، انعدمتْ معها "الوسيلة" واختفت أيضاً، فهي أي "الوسيلة" توجد لوجودها وتشرف وتعظم بشرفها وعظمتها.

والله وحده قادر على تحقيق ما يريد من اهداف ومقاصد من غير اللجوء إلى الوسائل، إلاّ أنّه –جل شأنه– شاء أن يرسي قواعد الأكوان والعوالم والمصالح البشرية على محور "الحكمة" لا "القدرة" وأن ينبيها على أعمدة الأسباب والمسبّبات، والوسائل والغايات.

والإنسان لكونه غاية الغايات، فهو أسبق في سلسلة الخلق –إنْ صحّ التعبير– من السموات والأرض، فقد أنستْ البشرية بالخطاب الإلهي:

﴿....أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ (سورة الأعراف؛ 172) وهي بعد في عالم الذر، والعوالم والأكوان من حولها في عمى الهباء قبل أن تشرق بنور الله.

فالإنسان "العابد" كما يصرح القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(سورة الذاريات؛ 56) هو الغاية الأساس الذي سُخرّت له السموات والأرض، وأصبحت العوالم والأكوان وسيلته إلى الارتقاء في سلّم العبودية الخالصة لله.

فلولا "الإنسان الغاية" لظلّت السموات والأرض عدماً معدوماً لا تنال شرف الخلق والوجود.

ويوم القيامة – يوم يختفي "الإنسان الغاية" – وتقوم قيامته، يختلّ معه الكون، وتصطفق السموات والأرض ويحلّ بها الدمار والعدم، وتختفي باختفاء "الغاية" التي وجدت من أجلها وارتبطتْ بها.

وأجدر من يمثل البشرية بصدق عبوديته لله، وإخلاص قلبه لبارئه، والذي خُلِقَ الكون من أجله هو محمد صلى الله عليه وسلم، فما سجد سجدةً إلاّ واستجمع فيها كل سجود البشرية، وما تضرع ضراعةً إلاّ واستحضر فيها كل ضراعات البشر، وما دعا دعاءً إلاّ واستذكر فيه كلّ أشواق الكائنات ومحبّتها ومواجيدها.

ويوم شاء الله أن يكرم "بني الإنسان" ويريهم ملكوت السموات والأرض، اختار ممثلهم وإمامهم محمداً صلى الله عليه وسلم، ليعرج به إلى السموات العُلى عند سدرة المنتهى ويطوف في أرجاء الملكوت حتى وصل "قابَ قوسين أو أدنى" فإذا الأكوان تشخص ببصرها إليه، وتهفو بأفئدتها

نحوه، وهي تحيا بحياته، وتتنفس بأنفاسه وتفكر بعقله، وتأنس بأنسه، وتتخلق بأخلاقه، وتجد في رسالته العصمة من الانفلات والضياع وفي قرآنه الحصن من الانهيار والجنون.

يقول "النورسي":

نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحسّ هما خلاصة مترشحة من الحياة، والعقل خلاصة مترشحة من الشعور والحسّ، والروح هو جوهر الحياة الخالص الصافي، وهو ذاتها الثابتة المستقلّة.

كذلك الحياة المحمدية **ق** -المادية والمعنوية- هي خلاصة الخلاصة المترشحة من الحياة ومن روح الكون.

والرسالة المحمّدية هي أيضاً أصفى خلاصة للكون، مترشحة من حسّ الكون وشعوره وعقله، بل إنّ حياة محمد **ق** -المادية والمعنوية- هي شعور لشعور الكون، ونور له، والوحي القرآني -بشهادة حقائقه الحيوية- هو روح لحياة الكون، وعقل لشعوره.. نعم.. نعم.. نعم..

فإذا ما غاب نور الرسالة المحمدية وغادر الكون، مات الكون، وتوفيت الكائنات. وإذا ما رُفِعَ القرآن، وفارق الكون جُنّ جنونه، وفقدت الكرة الأرضية صوابها وزال عقلها، واصطدمت هامتها الفاقدة للعقل بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.!..

الكلمة القرآنية

في "الكلمة القرآنية" تطالعنا ينابيع غزيرة من المعاني، وتبهرنا دُررٌ خبيئة من الأفكار والحكم وتسحرنا رياض خضراء، وحدائق غنّاءُ من أزاهير الحياة والوجود.

وحين نضع أناملنا على نبض "الكلمة القرآنية" نلمس في صدى نبضها نبضات الكون ونُحِسُّ في توهجها الأرض والسماء، ونبصر في ضوئها أضواء الشموس والأقمار، ونشاهد في تألقها تألق النجوم والكواكب وهي تعطينا من هذا كلّه على قدر عقولنا، ورهافة حِسّنا، وعُمق نظرتنا، وشمول معرفتنا.

فَكُلَّمَا كنّا أقدر على الغوص، وأكثر سبراً للأغوار، وأوسع استشرافاً للآفاق والأمداء، زادتنا -الكلمة القرآنية- عطاءً، وفتحت أمامنا الكثير من مغاليق أسرارها، ومخابئ كنوزها. وما توحيه كلمة -أي كلمة- من معانٍ وافكار، ومشاعر وأحاسيس، في ديوان شاعر، أو كتاب ناثر ليست سواء مع ما توحيه الكلمة نفسها عندما ترد في كتاب الله.

ففي كتاب الله تأخذ "الكلمة" معاني أعمق وأوسع، وتحتلّ من النفس الإنسانية مساحات أعظم وأشمل، وذلك لكونها تتحول في "كتاب الله" إلى كيان حيّ يموج بتلك الحياة المرتبطة بالأزل والأبد، هذا الأبد "غير الزماني" الذي تصبّ فيه أفكار الماضي والحاضر والمستقبل.

"فالكلمة" تحيا في أجواء الآية، وتتفاعل معها أخذاً وعطاءً، والآية ترتع في ربيع السورة وتستروح في ظلالها، وتنهل من نبعها، وتقبس من نورها،

والسورة تهطل من روح القرآن ومعانيه مضمخةً بنوره وعطره، والقرآن كلام الله الحيّ الذي يستمّد وجوده وحياته من وجود "واجب الوجود" ومن حياة "الحيّ" الذي لا يموت، فلا غرو – وهذا شأن القرآن – أن يقال: إن القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ويضيء بعضه بعضاً.

فكلام القرآن يتمخض في حسّ "النورسي" وفي وجدانه عن عالم غريب جميل من الصور والأخيلة التي تأخذ طريقها إلى قنوات حسّه وشعوره، وسرعان ما يتناولها شعوره المرهف وذوقه المصفّى وفهمه الشمولي ليشيد منها صروحاً شامخة مبتكرة في أدب القرآن، وأسلوب تعامله مع "الكلمة" ومنهج عرضه وطريقة مخاطبته للإنسان. ويسرنا أن نعرض هنا بعضاً مما كتبه "النورسي" نصاً في الكلمة القرآنية فيما تناوله من تفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

يقول النورسي: وحتى أنّ "العين" التي معناها الواحد: البصر أو المنهل يطلق على الشمس أيضاً، بالرنو إلى أنّ العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها. أو أنّ ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض المشرف على الكائنات. وقس على ذلك[3].

أمّا ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾(سورة البقرة؛ 18).

فاعلم: أنّ الإنسان إذا وقع في مثل هذا البلاء – قد يتسلّى ويأمل ويرجو النجاة من جهات أربع مترتبة:

---

[3]. الجبل الأبيض يقصد به الشمس التي تبدو كجبل أبيض في وسط المساء.

فأولاً: يرجو أن يسمعَ أصوات تناجي الناس في القرى المجاورة أو من عابري السبيل، حتى اذا طلب العون والمدد أمدوه، ولما كانت الليلة ساكنة بكماء، استوى هو و "الأصم" فقال: "صُمٌّ" لقطع هذا الرجاء.

وثانياً: يأمل أنه إن نادى أو استغاث، يحتمل أن يسمع أحد فيغيثه، ولما كانت الليلة صمّاء، كان ذو اللسان والأبكم سواء فقال: "بُكمٌّ" لإلقامهم الحجر بقطع هذ الرجاء أيضاً.

وثالثاً: يأمل الخلاص برؤية علامة أو نار أو نيّر[4]

يشير إلى هدف القصد، ولما كانت الليلة دامسة رمداء عبوساً عمياء، كان ذو البصر والأعمى واحداً فقال: "عمْيٌ" لإطفاء هذا الأمل أيضا.

رابعاً: لا يبقى له إلاّ أن يجتهد في الرجوع، ولما أحاطت به الظلمة، كان كمنْ دخل في وحلٍ باختياره وامتنع عليه الخروج..!.

نعم، كم من أمر تذهبُ إليه باختيارك، ثم يُسلَبُ عنك الاختيار في الرجوع عنه تُخَلّيه أنتَ، ولا يخليكَ هو.

فقال تعالى: ﴿فَهُم لاَ يَرْجِعُونَ﴾ لسدّ هذا الباب عليهم وقطع آخر الحبل الذي يستمسكون به. فسقطوا في ظلمات اليأس، والتوحش، والسكون والخوف!.

وأما آية: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾(سورة الشورى؛ 43)، فاعلمْ: أن الجمود على الظاهر في هذه الآية مع توقد الاستعارة فيها، جمود بارد وخمود ظاهر.

---

[4]. أي جسم منير أو نير.

إذ كما تتضمن (قوارير من فضة) إستعارة بديعة، كذلك تحتوي: (من جبالٍ فيها من بَرد) على إستعارة بديعة عجيبة مستملحة.

فكما أن كؤوس الجنة لم تكن من الزجاج ولا من الفضة، بل في شفافية الزجاج، وبياض الفضة، ومن حيث أن الزجاجة لا تكون من الفضة لتخالف النوعين، أشار إلى الإستعارة بذكر "من" بالإضافة، كذلك (من جبال فيها من بَرَدَ) متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر إلى السامع:

وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين "العالم العلوي" وتَشَكل "العالم السفلي" وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجوّ في لبس الصور من يد القدرة.

كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حُلل الثلج والبرد في الشتاء، والمتعممة بها في الربيع ثم تزينت في الصيف ببساتينها المتلوّنة، فاظهرت في نظر الحكمة –بانقلاباتها– "معجزة القدرة الإلهية" قابلها جوّ السماء محاكياً لها، مسابقاً معها لإظهار "معجزة العظمة الإلهية" فبرز متبرقعاً ومتعمّماً بالسحاب المتقطع جبالاً، وأوطاداً وأودية، والمتلونة بألوان مختلفة مصورةً لبساتين الأرض، ملوحاً ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلها.

فبناءً على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخيالي استحسن تشبيه السحاب –ولا سيما الصيفي منه– بالجبال، والسفن، والبساتين، والأودية، وقافلة الإبل –كما تسمع من العرب في كلامهم– فيخيل إلى نظر البلاغة: أنّه قطعات السحاب الصيفي سيّارةٌ وسيّاحة في الجوّ، وكأنّ الرعد راعيها

وحاديها، كلّما هزّ عصا برقه على رؤوسهم في البحر المحيط الهوائي إهتزت تلك القطعات وارتَجّتْ وتراءتْ جبالاً صادفت الحشر، أو سفناً تلعب بها يد العاصفة أو بساتين ترججها من تحتها الزلزلة، أو قافلة شردتْ من هجوم قُطّاع الطرق، مع ذلك يسيرون ويجرون بأمر الخالق.

ولما ناداها الرعد —كالبوق المعروف في المعسكرات— بـ"حيّ على الاجتماع والاتحاد" تَسارعوا من منازلهم مهطعين إلى راعيهم فَيُحشَرون سحاباً، ثمّ بعد إيفاء الوظيفة حقّها وتلقّي الأمر بالإستراحة، يطيرُ كلٌّ إلى وكره.

فبناءً على هذه المناسبة الخيالية، وعلى المجاورة بين السحاب والجبال:

إذ الجبل —بعامل البرودة والرطوبة— يتظاهر ويتشكّل السحاب عليه بمقداره، ويلبس لباسه، وعلى وجود الأخوة بينهما ومبادلة الصور واللباس لكليهما في كثير من مواضع القرآن ومصافحتهما في منازل التنزيل كمحاورتهما وتعانقهما في كثير من سطور صحيفة الأرض في كتاب العالم. فترى السحاب متوضعاً على الجبل ويصير الجبل كأنه مرسى لسفن السحاب ترسو عليه، أو مجلس تتشاور عليه، أو وكر تطير إليه، استحقّا — بحكم المجاورة— في نظر البلاغة أن يتبادلا ويتسعيرا لوازمهما، فيعبر عن "السحاب" بـ"الجبل" مع تناسي التشبيه.

فإذا عرفتَ ما سمعتَ من المناسبات،

فـ (ينزّل من السماء) أي من جهة السماء

(من جبال فيها) أي من سحاب كالجبال،

(من بَردٍ) أي من مطر كالبَرد في لونه ورطوبته وبرودته.

المغيب

25 رمضان 1379هـ

كالشمس –أنت– ما تنفك تسقى الأرض من ينابيع نورها وترضع العالم من لبن أضوائها، حتّى إذا ما بلغتْ ذروة عطائها النوريّ، وتألّقتْ متوهجة في كبد السماء، وطفقتْ تستقطر في أفواه الكائنات الظامئة أفاويق الظهيرة الندية، وتستعصر في العيون الوسنى أضواء التفتح والصحو والإنبعاث.. إذا بها تميل –على مهل– إلى الزوال وتنحدر رويداً رويداً نحو أفق الغروب ثم لا تلبث أنْ تتوارى وتحتجب مخلفةً وراءها عتمة المساء الحزين.

تألّقت –يا أسد الإيمان– كالشمس، وأضأت كما تضئ، وأنَرتَ كما تنير، وأعطيتَ العالم "رسائل النور" شمساً مشرقةً في سماء العقول والقلوب والأرواح، تحيي ببرد أنفاسها مواتَ العقيدة، وتُنهضُ بأشواقها الإيمان القعيد، وتلهبُ ببروقها اليقين الهَمودَ، وتحركُ بِنَوئها سواكنَ الآمال، وتُذيبُ بحرارتها جوامد الهِمم، وتأخذ بيد الفكر الكسيح، وتهتفُ بمشلول الروح والوجدان:

أنْ قُم معافى.. وانهضْ مبرأ النفس من كلّ داء.. ومسيح القلب من كل الجروح والأوجاع.. تُرى هل آنَ لزلزال الفكر في رأسكَ، ولبركان المعارف المتفجر في كيانك، وقد ألقى بكلّ أثقاله الإيمانية وقذف بكل جواهره القرآنية، أن يهدأ ويستقّر ويصمت ويسكن..؟!

وتمضي حياتُكَ المثخنةُ بأوصاب الكفاح، وجراحات الجهاد نحو شوق المغيب، وتدلفُ إلى عالم الأبدية الساجية بهدوء الطمأنينة وصمت الوادعة والسكينة..؟

على حافة الأبدية تقف بجسمك المريض المتعب، وقد هدتّه آلام المرض وآدته أوجاع السنين وبشيخوختك الوضّياءة الوقور وبقلبك المثقل بهموم الإسلام والإيمان، وبروحك المعذّب المكلوم، تشارفُ أبواب الآخرة.. ومن هناك تطل على العالم الذي تعرف دروبه لكثرةٍ ما كتبتَ عنه.. وتكاد تعرف طريقك إلى جنانه ورياضه لكثرة ما عشتها بكلّ ذرات دمك، ولكثرة ما وصفتها وتحدثت عنها فيما ألّفتَ وكَتَبتَ..

وفي غمرة مرضك —ورغم ما كنت تحسّه من آلامٍ وأوجاع— ينبعثُ صوتكَ عميقاً ندّيا مضمّخاً بعبير الأبدية، مخاطباً تلامذتك الحزانى وقد لفتهم سحابات من الحزن والآسى والإشفاق:

أموتُ أنا.. أمضي أنا.. ولكن.. إعلموا أن عصر الإيمان الجديد قد بدأ.. وعصر القرآن قد أطلّ.. وأنّ "رسائل النور" ستمضي تشقّ لهذا العصر طُرقَهُ، وتمهد له سُبُلَهُ.. فافرحوا يا إخوتي.. وابتهجوا يا أبنائي.. فعيدُ الإيمان قد أطَلّ، وفجرُ القرآن قد تبلج وأشرق..

وتغشاك غاشية تغيب فيها ساعةً عن وعيك. وتمضي عن الدنيا ملفعا بغموض روحي مثير، وتسري في صحبة ذلك الهاتف الغيبي الحبيب الذي يهدهد رحيلك، ويحدو ركبكَ إلى شواطئ الخلود:

إمض سعيد.. إمض.. إمض إلى "أورفة".. ليست "أميرداغ" أرضك التي تموت فيها.. في "أورفة" تموت. ومنها تجوز إلى عوالم الطهر والخير والحق

والجمال. هذه العوالم المشتاقة إليك شوقكَ إليها.. والمتلهفة للقياك تلهفك عليها. والتي عَرَفتكَ وأحبّتك كما عرفتها وأحببتها.

وتفيق وتفتح عينكَ وتغمغم في صوتٍ خفيض:

– أورفة..؟ حسناً. إلى "أورفة" نذهب..!

وتفجأُ مرافقيك من حولك:

– هيّا.. خذوني إلى "أورفة"..

– الآن..؟ وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل..؟

– نعم الآن.. لا بدّ من الرحيل..

ويحارُ تلامذتُكَ، ويفغرون أفواههم شَدَهاً، ويظنون فيك ما يمكن أن يظنوه في مريض قد صرعه المرض وغَلَبته الحُمّى..

ولكن صوتكَ يزداد وضوحاً، ونبرتُه تدل على أنّك في كامل قواك العقلية، وأنك تعني ما تقول فعلاً.

– لماذا التردد.؟ قلت لكم: خذوني إلى "أورفة" الآن..

وإزاء هذا الإصرار ينصاع تلامذتك لرغبتك، ويسارعون إلى استئجار سيارة تقلكم معاً إلى "أورفة"..

ويحملونك إلى السيارة برفقٍ وهدوء وهم يحاذرون أن يسبّبوا لك أيّ ألم أو أذى.. وتمضون إلى "أورفة".. ولكن "المخبر" الموكل له مهمة مراقبتك وترصد حركاتك، يسارعُ لإعلام أجهزة "الأمن" بمغادرتك لـ"أميرداغ" في سيارة أجرة.. وصفها وشكلها كذا.. وتحمل الرقم كذا..

ويقوم رجال "الأمن" ويقعدون لهذا الخبر الصاعق. وسرعان ما تهتزّ اسلاك الهواتف في طول البلاد وعرضها وهي تبلغ النبأ الخطير إلى المعنيين

هنا وهناك.. وتتطاير البرقيات إلى كلّ مكان: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.. لقد غادر "النورسي" "أميرداغ" إلى جهة مجهولة.. انتبهوا.. تيقظوا.. افتحوا عيونكم جيداً.. راقبوا الطرق.. سدّوا المنافذ..

وإذا بالدولة بكل قواها وسلطانها وعظمتها ترتعد فرائصها اليوم أمام القوة الروحية الخارقة التي يمتلكها هذا الشيخ الأعزل العجوز الفاني، وهو يقف على عتبة الآخرة منتظراً الإذْنَ بالدخول بين ساعة وأخرى..

وتصل إلى "أورفة" في جوّ عاصف حزين ممطرٍ.. "أورفة" أرضك التي كُتِبَ عليك منذ الأزل أن تموت فيها، وتُوارى فيها التراب.. وفيها معراج روحك، ونافذة نفسك التي تَنَسلّ منها إلى ربها راضية مرضيةً..

وتنزل مع ثلاثة من طلبتك في فندق "إيبك بالاس"، وما يكاد خبر وصولك يطرقُ أسماع رجال الشرطة والأمن حتى يسارعوا إلى تطويق الفندق من جميع جهاته، ويقتحم أحد المسؤولين غرفتك ويلقاه على ضوء المصباح الخافت الكئيب، وفوق سرير في إحدى زوايا الغرفة، شبح إنسان قد مصّتهُ الأوجاع وأنحلته الآلام وهدمته الأمراض.. ويتوقف لحظةً مبهوتاً..

أهذا هو الرجل الذي أثار هذه العاصفة من الرعب في صفوف المسؤولين.. أهذا الكيان المتهدّم يمكن أن يشكل خطراً على الدولة وأمنها كما يقول رجال الحكومة.. صحيح أن جبينه الوضّاء مازال يشرقُ بتلك المهابة المحبّبة.. وأن بريق عينيه ينبئ عن قوة خفية مجهولة غامضة.. ولكنه مع ذلك فهو قعيد الشيخوخة والمرض، وليس بإمكانه -حتى ولو قصد

ذلك- أن يسبب أيّة متاعب لأي إنسان، فضلاً عن الدولة وحكومتها ورجالها.

ولكن الأوامر هي الأوامر، ولا بدّ أن ينفذها بغضّ النظر عن كل الإعتبارات الخلقية والإنسانية..

- لا بدّ من أن تترك "أورفة" وتغادر إلى "إسبارطة" فوراً.. عندي أمر صريح من وزير الداخلية بذلك..

وتنفرج شفتاك عن إبتسامة إشفاق حزينة وتقول:

- اسمع يابُنّي.. لقد جئتُ إلى هنا لأموت.. وأنا أنتظر ساعتي بني لحظة وأخرى.. ولا يمكنني أن اغادر هذا المكان مهما كانت الأسباب.. ألا ترى ما أنا عليه من ضعف ومرض..

وتلتفتُ إلى طلبتك وتقول لهم:

إشرحوا لهذا السيد حالي وضعفي. وأوضحوا له ما أعانيه من متاعب وأوجاع..

ويُستدعى الطلبة المرافقون لأستاذهم إلى مركز الشرطة، ويدور هذا الحوار:

- لماذا قدمتم إلى هنا؟ وماذا تبغون؟ ومن أذِنَ لكم بالقدوم إلى "أورفة"؟

- نحن هنا نزولا عند رغبة أستاذنا.. ولا ندري ماذا يبغي من وراء حضورنا إلى هذه المدينة.

- حسنا، قولوا لأستاذكم بأنّ هناك أوامر مشدّدة من السلطات العليا.. وعليكم أن تتركوا "أورفة" حالاً، وتعودوا إلى "إسبارطة"..

– ولكنه في أشد حالات المرض.. وصحته لا تتحمل مشقّة سفر يستغرق أربعاً وعشرين ساعةً أخرى..

– مهما كانت حالة أستاذكم ينبغي أن تتركوا "أورفة" فوراً. تلك هي أوامر السيد الوزير..

– لم نتعود مراجعة أستاذنا في القرارات التي يتخذها.. فإذا أحببتم فأعرضوا عليه الأمر بنفسكم، وإذا أمرنا المغادرة فسنغادر..

ويغتاظ "مدير الأمن" لهذا الجواب ويقول بحدّة:

– ماذا تعنون؟ ألا تستطيعون أن تعرضوا عليه أمراً كهذا؟

– نعم، لا نستطيع.

– إذا كنتم مرتبطين بأستاذكم هذا الإرتباط، وتنفذون ما يأمركم به، فأنا أيضا مرتبط برؤسائي.. وأنا أمهلكم ساعتين فقط لترك هذه المدينة والعودة إلى "إسبارط"..

ويسارع بعض طلبة النور إلى المستشفى الحكومي في المدينة، ويرجون كبير الأطباء أن يصحبهم إلى "الفندق" للإطلاع بنفسه على الحالة الصحية المتدهورة لأستاذهم.

ويتم الكشف على الرجل المريض، ويستحصلون تقريراً طبياً رسمياً منه، بأن حالة "الأستاذ" المرضية لا تسمح له بمغادرة الفراش، وأن أي مجهود مهما كان نوعه يمكن أن يودي بحياته..

وينتشر بين الناس خبر وجود "الأستاذ" في مدينتهم، ويتلقون بغضب واستهجان موقف السلطات المزري منه، ويشدهون لهذه المعاملة القاسية الخالية من مشاعر الرحمة والإنسانية والذوق.

ويتجمع حول الفندق العشرات منهم، ثم المئات، ثم الألوف، في تظاهرة احتجاجية تعبر عن مشاعر السخط والاستنكار، ويبرقون إلى الجهات المسؤولة في "أنقرة" يشجبون تصرفات أجهزة الأمن اللاإنسانية إزاء "الأستاذ" الشيخ وهو في أشد حالات الضعف والمرض..

ويثور "مدير الأمن" ويبلغ به الغضب مبلغا عظيماً وهو يرى تجمع الناس الإستنكاري حول "الفندق" فيقرر مقابلة "الأستاذ" بنفسه وتبليغه بالزوم مغادرته لـ "أورفة"..

ويصل "مدير الأمن" إلى الفندق محاطاً بثلة من رجاله، ويطلب مقابلة "الأستاذ" فيؤذن له بالدخول إلى غرفته فيدخل وتقع عينيه على شبح إنسان متهدم مستلق على سرير متواضع وهو يعاني من حُمّى شديدة، ولكنه مع ذلك يسرع فيقول:

– يؤسفني أن أبلغك بأن الأوامر قطعية، ولا مجال لمناقشتها.. ولا بدّ من أن تترك المدينة وتغادر إلى "إسبارطة"..

وترتسم على شفتيك الذابلتين إبتسامتك الوادعة الصافية وترد بصوت خفيض متعب:

– أنا الآن في الدقائق الأخيرة من عمري.. ولا أقوى على مغادرة "أورفة" سأموت هنا عن قريب.. إنّ واجبك "كمدير أمن" هو ان توفر لي "الأمن والأمان" لكي أموت هادئاً مطمئناً.. وأن تهيئ لرجل غريب مثلي وهو في الرمق الأخير مستلزمات الغسل والتجهيز والدفن..

ويحسّ "مدير الأمن" برعدة تسري في أوصال جسمه، ويتصبب عرقاً، ويشعر بالخجل والتصاغر أمام هذه القمة الإنسنية العظيمة التي ما زالت

تشيع فيما حولها المهابة والإجلال والإحترام، رغم ما يتغشاها من عتمة المغيب الوشيك..

وينسحب من الغرفة مع رجاله مطرق الرأس في صمت وهدوء..

ويمضي الليل بطيئاً ثقيل الخُطى.. والجسد الذاوي يئن ويتهاوى لحظةً بعد لحظة تحت وطأة الحمّى اللاهبة وهي تبخر بسعيرها ماء حياته قطرة قطرة. وتنفخ بزفيرها لتطفئ ذبالة روحه، وبقايا رعشات من سراج قلبه، حتى إذا ما بلغت الحرارة أوجها، ووصلت مداها، تسللت الحمّى من الجسد المسجّى وتركته على حافة الموت هامداً يستريح بعض الوقت قبل أن يتوقف القلب إلى الأبد، ويصعد الروح إلى العالم الذي هبط منه أوّل مرة..

ويتقدم واحد من طلبته، ويتلمس براحة يده جسم أستاذه وجبينه فيحمد الله تعالى على أن حُمّاه قد زالت، وأنّ حرارته قد انخفضت، فيسبل اللحافَ ويغطيه برفق، ثم يعالج موقد الغرفة فيشعله طلباً للدفء في هذه الليلة القارسة البرد...

وينبلج فجر الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379 هـ (الثالث والعشرين من آذار 1960) وينتظر طلبته أن يبدو من "الأستاذ" أية حركة تنمّ عن استيقاظه، ورغبته في القيام إلى الصلاة. ولكن "الأستاذ" ظلّ غارقاً في سبات عميق في وقت ما كان يعرفُ النوم فيه طيلة حياته... ويقترب الطلبة من أستاذهم ويتحسسون الجسد المتثلج ويعرفون أنّ "أستاذهم" قد مضى ورحل إلى ذلك العالم الذي لا أحد يرجع منه أبداً.. يخيم على جو "الفندق" سحابة خشوع صامت، وتتنزّل في جنباته أنداء حزنٍ ملتاع،

وتـتردّدُ بين غرفـه ودهـاليزه أصـداء صـراخ روحـي مكبـوت، وتفجّـع كـوني مهمـوس، وينتـابُ النـزلاء أحاسيـس مبهمـة غامضـة ويشعرون فجـأة "وكـأن قلوبهم تغوص في بركة من الدم والدموع، ويحارون.. ويهجسون.. ثم يطلّون من أبواب غرفهم ويسأل بعضهم بعضاً:

– ماذا حدث؟ وأي أمر جَلَلٍ قد وقَعَ؟

ويهمس بعضهم لبعضٍ:

– لقد مات الشيخ المظلوم.. وارتفعت روحه إلى بائها..

وعنـدما يغـادر "مـدير الفنـدق" غرفـة الرجـل المسـجّى يلتقيـه في الـدهليز "مدير الأمن" ويدور بينهما هذا الكلام المقتضب:

– ماذا حدث؟.. ما أخبار الرجل المريض؟

– لقد مات..

– أحقاً مات؟ أمتأكد أنت من موته؟

– لقد مات وانتهى كل شئ..

وينسحب "مدير الأمن" ويغادر "الفندق" صامتاً مطرقاً..

سرعان ما ينتشر خبر الوفاة في مدن "تركيا" وقراها وأريافها، ويتوافد إلى "أورفة" عشـرات الألـوف مـن كـل مكـان ليشـاركوا في تشـييع جثمـان الرجـل المجاهد إلى مثواه..

وتبكـي السـماء.. وتنهـلّ دموعهـا، وتنـوح الأرض، وينتحـب الشـجر والمـدر.. وبين قلوب النـاس الوالهة وعيونهم الباكيـة، يمضي الموكب الحزين إلى "أولـو جـامع" في "أورفة" وهناك ينزلُ جثمان الرجل القبر.. ويُوارى التراب..

أنـت –يارجـل الإيمـان– مأسـاة المجـد، ومجـد المأسـاة.. عبقـريٌّ الآسـى وأسى العبقرية.. همومُك هموم أمّةٍ ضائعة في متاهات الزمن.. وآلامك آلام شعوب تواقـة للـدين والإيمـان.. وأحزانـك سـليلةُ الحـزن المحمّـدي العظيـم **ق** والسـاري في روح الكـون، والماسك بزمـامه أن يستخفه طربُ الـدّلُ، ونشـوة الخلـق، فيطير صـوابُهُ، ويفقـد تـوازُنَهُ.. فلا غـرو أن يظـلّ الشـجى والأسـى مهمـاز الكـون وعقـال الوجـود، ويظـل زاد رجـال الإيمـان وقـوتهم على طريق التبليغ والجهاد.

ولكـن.. هـل انتهـت في القـبر آلامـك..؟ هـل أرَحْـتَ واسـترحْتَ وأنـتَ تحت أطبـاق الثرى..؟ هـل آن لجسـدك المتعب المنهـوك أن يلمـس في تـراب الأرض برد الأمن والأمان الذي لم يعرفه طوال حياته...؟

فـإذا لم يكـن بوسـع السـادة الـدنيويين أن يـتركوك تسـتريح في دنيـاهم، أفليس من حقّكَ وأنت فيما وراء زمـانهم ومكـانهم أن ينعم جسدك المضنى بالطمأنينة والسكينة والأمن..؟

لا.. فإنّ روح الانتقـام مـا زالـت تعـوي عـواء مخيفـا مرعبـا وتطـالب بالمزيد مـن الأذى لرجـل الإيمـان الشـاوي في قـبره.. وأن سـعير الكراهيـة يغـري ذئابَهُ البشـرية إلى أن تخـرق أمـن القبـور، وتصـخب على سـكينة اللحـود، وتعبـث بحرمة الموتى وقدسية الموت..

مُخيفٌ أنـت حيّاً، ومخيـف أنـت ميتـاً.. مهيـبٌ أنـت فـوق الثرى، ومهيـب أنت تحته.. زلزال في الحياة.. وزلزال بعد الممات..

بالأمس كان بريق عينيك الطافحتين بالنـور والحياة يشُـلُّ حركـة الأعـداء،

ويملأ قلوبهم جزعاً هلعاً.. واليوم أيضاً -رغم ركامات التراب- يخشونك كما يخشون أسد الغاب وقد أخذته سنةٌ من النوم..

هنا في هذا القبر يثوي "النورسي" شاهد الإيمان، وخادم القرآن وحامل لواء الإسلام.. وجموع المؤمنين من كلّ حدبٍ وصوبٍ تزور وتستذكر وترثي وتستعبر، ويقف على القبر الآلاف المؤلفة من الناس وهم يجدون في صاحب القبر القدوة والمثل ويلمسون في سيرته وأفكاره النور والأمل.. فما العمل..؟! فما العمل..؟!

ولم تكد تنقضي خمسة أشهر على وفاة الرجل حتى يخيم ليل أسود كثيف، وتتجمع في سماء "أورفة" قطعُ من سواد بهيم، يحمل في طياته ظلمات بشعة من ظلم الإنسان وقساوة قلبه وهمجية حقده..

وتحت جناح هذا الليل يتسلّل إلى القبر الحزين واحدٌ من جنرالات الجيش مع ثلة من جنده.. وتحت إشراف أحد الأطباء العسكريين، وبحضور شقيقه الشيخ "عبد المجيد" المفجوع بأخيه — وقد أُجبِرَ على توقيع طلب رسمي بنقل رفات أخيه إلى "إسبارطة" -.. يُفتح القبر، ويستخرجُ الجثمانُ، ثم يوضع في تابوت جديد، ويحمله الجنود إلى طائرة عسكرية كانت الإنتظار، فتقلّه إلى "أفيون" ومنه يُنقل التابوت بسيارة إسعاف إلى "إسبارطة"، وهناك يُدفن تحت أستار الليل في مكان مجهول، تحيط به الوحشة والغربة والغموض..

رحم الله "النورسي".. كم عانى الغربة والوحشة والألم والعذاب، حيّاً.. وميّتاً...

أديب إبراهيم الدباغ

فهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع